رواية
خالي من البشر
معتز العريني
إبهار

خـــــــالي
من البشر

خالي من البشر

معتز العريني

رواية

مراجعة لغوية: مها سيد

إخراج فني: هند محمود كمال

تصميم الغلاف: يوسف السيد

رقم الإيداع: 2022/22221

الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6977-61-7

جميع الحقوق محفوظة ©

أي اقتبـــاس أو تقليـــد أو إعادة طبـــع أو نشـــر دون موافقة كتابيـــة، يُعرِّض صاحبه للمساءَلة القانونيـة.
أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمـــادة الـــواردة في الكتـــاب فهي خاصـــة بالكـــاتب فقط لا غير.

إبهار للنشر و التوزيع

+20 109 919 7450

Info@ebharbook.com
www.Ebharbook.com

Strand block - Abdein square
down town - Cairo - Egypt.

رواية

خـــــالي من البشـــر

معتز العريني

إبـهـار
للنشر و التوزيع

لم يختر البشر نصيبهم ومعاناتهم
سوى إنسانٍ واحد؛ هو الذي اختار
نصيبه ومعاناته ولم يتنازل!

قبل أن يستيقظ في اليوم التالي كتب على صفحته:

"وسأظل أهرب من الواقع حتى أجد واقعًا يتناسب مع خيالي وتوقعاتي؛ فواقعي لا يناسبني، حيث أشعر أن روحي تنتمي إلى مكانٍ ما وأشخاصٍ آخرين! ربما تنتمي إلى الجنة وإلى أرواحٍ أخرى! إلى متى سأعيش هذه المعاناة وأخرج من عقلي لأرتاح قليلًا؟! فأنا لا أعلم ما الأفضل. أعيش في الواقع وأعاني؟ أم أهرب منه وأبقى في الخيال و.. أعاني أيضًا؟!"

أين ذهب البشر؟! فتح "آدم" نافذته التي تطل على الأشجار والشوارع، ولكنه لم يكن يومًا عاديًا كبقية الأيام؛ كانت الشوارع تخلو من جميع الكائنات! شعر "آدم" أنه في عالمٍ آخر؛ فركض مسرعًا إلى المرآة؛ ليطمئن إذا كان متواجدًا أم لا. وجد في المرآة شابًا في الثلاثينات ولكنه يبدو كأنه على مشارف الموت؛ فالسن ليس له علاقة بالكبر والشيخوخة فنحن نشيخ بجروحنا وليس بعدد السنين.

نظر "آدم" في مرآته التي طمأنته بأنه حي، ولكنه خاف أكثر بأنه وحيد الآن أكثر من وحدته التي يعيشها.

رغم أن "آدم" في ريعان شبابه، ولكن لديه الكثير من الندوب التي وراءها الكثير من القصص والحكايات، إنه شاب شكله وسيم، وملامحه طفولية، ولكنه غير مهندم يترك شعره وذقنه على حريتهما، لا يهتم بملابسه فلماذا يهتم بنفسه بينما لا يوجد أحد يهتم به أو يأبه بوجوده؟! إنه يميل إلى الانطوائية، توفي والداه في سنٍ صغيرة، يعيش وحيدًا حياة رتيبة، يغرق في غرفته بين الكتب، يسكن في شقة بسيطة، بينما يسكن أيضًا في ماضيه وآلامه، ودومًا يشعر أنه لا يوجد أحد يفهمه، وهذا لأنه لا يفهم نفسه! ولا يفهم ماذا يحدث الآن؟!

ظل يمشي ذهابًا وإيابًا في غرفته متوترًا لا يعرف ماذا يفعل؟!

ثم تذكر شيئًا فأخذ ورقةً وقلم وظل يكتب أشياءً غير مفهومة ويرسم أحداثًا، ثم يمسك بالموبايل ويتصفح بعض المواقع، يذهب إلى مكتبته ويزيح كتبًا كثيرة ثم يمسك كتابًا ويقلب صفحاته بسرعة وهو يشعر بالفزع؛ فيقع منه الكتاب ثم يجري كالمجنون في الشوارع!

رغم وحدة "آدم" القاتلة لكنه أخذ العالم، والبشر، والحياة كأنهم شيءٌ مضمون، ورغم وحدته لم يتخيل أنه سيستيقظ يومًا ولن يجد أي كائن حي حوله! ظل يجري ولا يعرف أين يذهب؟! شعور مميت أن تذهب إلى هدف لا تعرفه؛ فتنتظر شيئًا ينتشلك مما أنت فيه، ولكن الحقيقة هي أن الأشياء هي التي تنتظرنا أن ننتشلها.

رأى "آدم" سياراتٍ متصادمةً ببعضها البعض، ورأى طائراتٍ ساقطةً من السماء! اقترب ليبحث عن أي شخصٍ بداخلهم، ثم التفت سريعًا ناحية المرآة الجانبية لسيارة متهشمة؛ فوجد وجهه المليء بالذعر وعينيه الجاحظتين بينما هو يسمع ضربات قلبه كالطبل التي لا يُسمع غيرها مع معزوفة ذات إيقاعٍ سريعٍ يقوم بها شهيقه وزفيره المعبران عن ذهوله الشديد!

مشى "آدم" كثيرًا وهو يبحث عن أي دليلٍ؛ حتى يفهم ماذا حدث؟! ينظر حوله فيجد الفراغ والصمت المخيف، أين ذهب هذا الضجيج الذي كان لا يستطيع أن ينام بسببه؟! هل افتقد ذلك؟!

ما أعجب الإنسان! يتمنى أن يخلو العالم من الصخب والبشر المزعجين، لكن عندما تتحقق أمنيته ينظر إلى السماء ويقول: "كنت أمزح.. فأنا وحدي الآن وأحتاج أُناسًا حولي!".

كان "آدم" يعتاد على أن يذهب إلى مقهى هادىء يشبه طبيعته الهادئة، مر بجانبه فوجده خاليًا من أي دابةٍ! فدخله بهدوءٍ وتعجب من وجود كل شيء، ولكن أين الناس؟ وأين صوت الأواني المزعج؟!

تسحَّب إلى مكان العاملين الذي كان دومًا يجتاحه الفضول ليدخله، فوجد ماكينة القهوة التي كان النادل يعطيه منها، تخيل أنه إذا استبدل المرات التي شرب فيها قهوته بعملاتٍ نقدية فسيكون لديه ثروة طائلة؛ "فآدم" والقهوة لا يفرقهما إلا الموت.

كان "آدم" على مشارف اليأس في أن يعرف ماذا يحدث حوله، انتقل من المقاهي إلى كثيرٍ من الأماكن، توجه إلى أماكن أكثر ازدحامًا مثل الأسواق، ولكنه بعد أن كان يشعر بالضياع والملل شعر للحظةٍ أنه قد امتلك العالم!

وبينما هو في طريقه إلى اللا شيء، فكر في أنه لا يملك من الأمر شيئًا، لماذا لديه من الفضول ما يجعل عقله يجن هكذا؟! فهو وحيدٌ عندما كان العالم يضج بالناس وأبواق السيارات، والآن هو وحيدٌ أيضًا، لكن ربما الشعور بالوحدة يختلف عن العيش وحيدًا فأيهما أصعب؟! وهذا ما كان يفكر فيه "آدم" ولم يجد إجابةً؛ فهو يعيش معذبًا في كلا الحالتين.

قرر "آدم" أن يحاول الاستمتاع بوقته بدون بشر؛ فدخل يأكل في المطاعم مجانًا ولكنه قام بطهي الطعام، ودخل السوق ليأخذ بعض الأغراض التي يمكنها أن تساعده في تلك الأوقات العصيبة، ولكن ما كان يحاول أن يوقفه ولا يستطيع هو عقله، الذي يصرخ دومًا بأفكارٍ غريبة لا متناهية كالطفل الذي يبكي ولا تعرف سبب بكائه!

"آدم" يعرف جيدًا أن الحياة كما يراها وليست كما تبدو؛ فبدأ يومه برؤية جميع السيناريوهات السوداوية، ولكن في لحظةٍ قام بالضغط على زرٍ جعله يفكر بشكلٍ أفضل؛ فنحن نعيش حياتنا كحُلمٍ سنستيقظ منه في وقتٍ ما، فلماذا لا نحلم قليلًا ونخلق الأمل؟! فبدون ذلك سنعيش كالأموات حيث ينهش القلق روحنا ويغيم اليأس حياتنا.

تذكر "آدم" شيئًا في غاية الخطورة، ثم نظر إلى ساعته فرأى أنه قد مرت ثلاث ساعاتٍ على استيقاظه، واكتشافه خواء العالم من البشرية. يا ليت

عقولنا تتوقف قليلًا ولا تكدر صفو حياتنا! فعاد "آدم" ليجري بدون وجهةٍ معينة إلى أن تعب من التفكير والجري بدون هدفٍ.

ثم وجد محطة بنزين، فلم يفكر في شيء إلا أن يشتري كوبًا من القهوة الساخنة من المقهى الذي أمامه؛ فدخل وأخذ زجاجة مياهٍ فارتشف حتى ارتوى، ثم بدأ في صنع كوبٍ من القهوة وابتسم محدثًا نفسه: "الإنسان ده غريب أوي، لما كان حواليه ناس كان بينعزل ويبعد عنهم، وبعدها لما صحي ملقاش حد نزل يدور عليهم!".

خرج "آدم" بقهوته ضاحكًا وهو لا يفهم أي شيء، لكنه قد بدأ في أن ييأس من علمه الذي لم يكتمل بعد رغم ثقافته، ويئس من فضوله الذي فشل في إرضائه!

"آدم" دومًا يريد أن يعرف كل شيء رغم أنه متيقنٌ بأن هذا شيءٌ مستحيل، وهذه هي معجزة الإنسان في الكون؛ يجد نفسه قادرًا على أن يفهم كل شيءٍ ويفعل كل شيءٍ، لكنه يكتشف أنه عاجزٌ أمام كل شيء! وبينما يستكمل "آدم" مسيره تاركًا عقله يضج بالتفكير، ومحاولًا تهدئة ضجيجه بقهوته الداكنة، وجد ما لم يكن في الحسبان.. وجد ما يشلّ زحام أفكاره!

***

وقف للحظةٍ بعد أن سمع صوتًا يحسبه من الهلاوس والأوهام التي دومًا تطرأ على ذهنه، لكن هذا صوتٌ مألوف! صوت بكاء فتاةٍ يعرفه؛ فهو كان يحب أن يسمع صوت ضحكتها، وصوت بكائها أيضًا؛ فيشعر أنه أمام فتاة قوية، ولكنها كاملة الأنوثة، والرقة، والدلال يجد نظراتها حادة مثل طباعها كأنه لديها سور حادٍ تحتمي به، ولكن بداخلها طفلة شقية وبريئة.

التفت "آدم" حوله وهو يجهل مصدر هذا الصوت! فوجد سيارتها وهي تجلس بداخلها تبكي؛ فهي لا تبكي بسهولة ولا تبكي أمام أي شخصٍ، ولكن "آدم" اعتادت البكاء أمامه؛ فهو صديقها المقرب وبئر أسرارها الذي تعتبره الأخ الذي عوضها الله به.

هي لا تحب أن تبكي كثيرًا؛ حتى لا تشفق على نفسها فتتظاهر أنها ليست ضعيفة، في حياتها قد تكون بكت أربع مرات، فقبل أن تذرف دموعها تجد كرامتها قد أمسكت بجفونها وبأنفاسها، كأن هناك قنبلةً موقوتة أوشكت على الانفجار.

"فريدة" تكره البكاء منذ أن كانت طفلة وتراه ضعفًا، فالبكَّائون هم الأكثر احتياجًا لمن حولهم، بينما هي تجد أنها لا تحتاج إلى أحدٍ، ولكن في مواقف كهذه هي في أشد الاحتياج لأي شخصٍ!

اقترب "آدم" من السيارة قليلًا؛ فشعرت بفزعٍ وصرخت بتلقائية مفرطة وعيناها ممتلئتان بالدموع، ثم صمتت مبتسمةً وكأنها وجدت طوْق نجاةٍ، ومسحت دموعها وهدأت قليلًا؛ فنظر "آدم" في عينيها مبتسمًا وكأنه يرى حُلمًا جميلًا قائلًا وهو ينظر لها مشدوهًا:

– فريدة!.

"فريدة"، فتاة ثلاثينية، ومن أجمل الفتيات التي تراها الأعين، خاصةً أعين "آدم"، عندما ذهب إلى المدرسة رأى فتاةً فائقة الجمال، عيناها واسعتان كلؤلؤتين بداخلهما دائرتين لونهما ينتقل من الأزرق تارة والأخضر تارة أخرى؛ فتبتسم بشفتيها المموجتين لتمتزج مع كسرة عينيها الملونتين، ثم ترفع يدها برقة لتضع خصلةً من شعرها وراء أذنها فتجده شعرًا ذهبيًا يشبه آشعة الشمس المتلئلئة، فيطير مع الهواء كأمواج البحر الهادىء وينزل إلى خصرها ليتراقص كذيل الحصان الناعم. من ينظر لها ويقف أمامها تتسارع دقات قلبه لا إراديًا؛ فهو يقف أمام أنثى جمالها لا يقاوم، فمن نصوعة بشرتها تنير المكان، ولكن.. أحيانًا شدة الجمال لا يكون في مصلحة صاحبه؛ حيث أن الكثير من الرجال يشعرون بأنها سترفضهم من فرط جمالها وأنوثتها؛ ولأنها أيضًا تقع في أيدي من يستغلون تلك الشفاه الحمراء وذلك الجسم المرسوم بدقة.

بينما "آدم" لا يفكر مثل بقية جنسه؛ ولذلك هي تشعر معه بالأمان أكثر من غيره، فإن رؤيته للفتاة الجميلة ليس له علاقة بشهوته المكبوتة، ولكنه يسرح في جمال صنع الإله، فكيف خلق أنثى بمثل هذا الجمال وبهذه الدقة والإبداع؟!

"آدم" و"فريدة" أصدقاء منذ زمنٍ بعيد، بعد المدرسة دخلا الجامعة سويًا، ولكن بعد تخرجهما ابتعدا قليلًا نظرًا لمشاغل الحياة الصاخبة.

بينما "آدم" لا يقتنع بذلك؛ فهو دومًا يحب أن يتواصل مع من يحبهم، ولا يعطي لظروفه الأولوية كالبقية وهذا ما يجعله مشتتًا.

رغم أن "فريدة" تتمتع بجمالٍ فريدٍ من نوعه وأنوثة تجعل العقل يجن، ورقتها تجعلك تذوب وتسرح بعيدًا، لكنها شخصية قوية، عملية، دومًا تتعامل بالمنطق أولًا ثم العاطفة، لا تحب أن تفصح عن مشاعرها، تهتم ببطولتها في "الجمباز"، تعشق الرياضة وخاصةً "الكيك بوكسينج"؛ وذلك لأنها قد مرت بتجارب مريرة كثيرة نجحت في أن تكسر قلبها، وتفتت كرامتها التي أصبحت تعجز عن إمساك دموعها كالسابق.

لم تجد "فريدة" شيئًا في الحياة سوى حماية نفسها والتفكير في ذاتها؛ فوضعت الحب جانبًا، الذي كان ولا يزال سببًا في إعطائها إثبات بأنها جميلة ومرغوبة.

ولكنه أصبح السبب الذي يجعلها تنظر في المرآة، فتشعر أنها قبيحة ومنبوذة! ما أعجب الحب الذي يجعلنا نحلّق في السماء بحريةٍ، ثم نصطدم بنسرٍ جامح ليأخذنا بين أظافره فيطلق سراحنا لنسقط في هاوية الخذلان!

"فريدة" تعددت علاقاتها على عكس "آدم" الذي تراه دومًا من الشخصيات النادرة، النقية الذي لم يشوبه خبث الرجال، ولا يزال على سجيته كالأطفال؛ ولذلك تحبه كثيرًا وتعتبره أخًا لها لم تلده أمها؛ فليس لديها إخوة غيره.

"فريدة" لم تفكر فيه كأي شيءٍ آخر حتى لا تخسره، فأحيانًا عندما يتدخل الحب بين الأصدقاء نخسر الحب ونخسر الأصدقاء، وهي ليس لديها الآن شيئًا تخسره، إلا "آدم" الذي يشعرها بأن الحياة لا زالت حياة.

أما هو، فيحترم رغبتها ليس أكثر؛ فالأهم من كل ذلك ألا يخسرها كصديقةٍ أو كأختٍ.. لا يهم، فيكفيه أن يؤنس بها ويشعر بحبها له؛ فهي دومًا الوحيدة التي تعطيه شعورًا خاصًا بأنه لا يشبه الآخرين، وتعطيه شعورًا أهم وهو أنه موجود في الأوقات التي يشعر فيها أنه ميت؛ فالمَعَزة الخاصة تكون أهم من الحب أحيانًا، ولكن من حينٍ لآخر يجد "آدم" قلبه يتدخل فيما لا يعنيه ليجعله يرى "فريدة" كفتاة أحلامه.

هبطت "فريدة" من السيارة في فرحٍ وسقطت من "آدم" الأغراض التي كان يحملها، ثم وجد نفسه غارقًا بين أضلعها، احتضنته بشدةٍ وكأنها كانت تخاف أن تظل وحدها أو أن تجد شخصًا غير "آدم"، وهو أراد أن يطول العناق إلى ما لا نهاية. فعندما نحتضن من نحب نجد أنفسنا في ملاذنا الآمن حيث أن قلوبنا تلتصق ببعضها وأرواحنا تتلاقى وتطمئن.

اعتقد "آدم" و"فريدة" أيضًا أنهما سيظلان وحدهما، لكن عندما وجدا كل منهما الآخر فهدأ روعهما، وشعرا أنه حتى إن كان هذا آخر يومٍ على الكوكب فعلى الأقل ستنتهي حياتهما معًا، وأرواحهما ستسافر سويًا.

وخلال احتضانهما تذكر كل منهما شريط الحياة يمر عليه كأنه فيلمٌ سينمائي، ثم نظرا إلى بعضهما ونسي "آدم" كل شيءٍ حوله كعادته عندما

ينظر في عينيها؛ لقد أراد أن يظل بين أذرعها ولا ينفك عنها؛ فعناق من نحب يكون سكنًا وسكينة.

ابتسمت "فريدة" ابتسامتها الساحرة على غير عادتها؛ فابتسامتها "لآدم" لها طابع خاص، ثم أومأت برأسها حيث أنه لا يوجد لديها ما تقوله؛ فهي لا تفهم أي شيءٍ وتتوقع أن "آدم" لديه كل الإجابات؛ حيث أنها تعرف جيدًا مدى ثقافته وكان له الفضل في تخرجها من الجامعة بسبب مساعدته لها.

فَهَم "آدم" من نظراتها الممتلئة بالفرح، والدهشة، والخوف أيضًا فأحب أن يطمئنها قليلًا رغم أن القلق يكسو قلبه، لقد أحب أن يعبر لها عن فرحته العارمة التي كانت واضحة على تعبيرات وجهه البلهاء فقال:

– كنت حاسس إني هشوفك!

فضحكت ساخرةً:

– أنا كنت حاسة إني هموت لوحدي هنا، هي الناس راحت فين؟!

يتضايق "آدم" أحيانًا من برود "فريدة" في ردودها؛ حيث أنه فائض المشاعر لكنها لا تشبع احتياجه العاطفي؛ فهي عملية للغاية بينما هو رومانسي وعاطفي ويمشي وراء قلبه الذي لا ينصفه في كثير من الأوقات، على عكسها تمامًا وكأن "فريدة" جعلته يستفيق فنظر إلى ساعته سريعًا، فوجد أنه قد تبقى ست ساعاتٍ، فتغيرت تعبيرات وجهه ونظر لها نظرةً تعبر عن قلقه، بينما هو لا يريد أن يقلقها، ولكن من فطنتها شعرت بأن هناك شيئًا يخبئه؛ فنظرت بجدية واقتضب جبينها قائلةً:

– هو فيه إيه بالظبط؟!

– لا.. لا مفيش حاجة.

– آدم، طمني بجد إيه اللي بيحصل هنا؟! أنا مش فاهمة حاجة.

– معرفش، أو يعني بصراحة كده أنا أعرف حاجات مطمنش، بس خايف أقلقك.. أقولك ولا...؟!

ابتلعت "فريدة" ريقها في ذعرٍ وكأنها ابتلعت لسانها ولم تعرف بماذا تجيبه، نظر "آدم" في ساعته وأمسك يدها المرتعشة برفقٍ، وأخذها ليجعلها تجلس على السيارة وتهدأ قليلًا ثم جلس بجانبها يربَّت على كتفها، ولم يسمع سوى صمتها وعقله يجهل ماذا يفعل؟ هل يعطي أمرًا إلى لسانه لينطق بالمعلومات التي يعرفها؟ أم يظل صامتًا حتى لا يضاعف قلق "فريدة"؟

***

أخذت "فريدة" من حقيبتها التي تحملها علبة سجائر، ثم أخرجت سيجارة وأشعلتها في توتر، ثم أخذت نفسًا طويلًا وزفرت في خوفٍ وهي تفكر فيما يحدث لها.

– تتمشى معايا؟

تفاجأ "آدم" من سؤالها قائلًا:

– ده وقته؟!

– أصل هيحصل إيه أسوأ من اللي إحنا فيه؟! لو عرفت منك أي معلومة هفضل قاعدة على أعصابي، ولو معرفتش فأي حاجة هتحصل مش هتبقى فارقة، أنا عشت حاجات أصعب من كده بكتير.

– يمكن لو عرفتِ تغيري رأيك!

فابتسمت "فريدة" وهي تنظر في عينيه:

– وأنت معايا أنا مطمنة، أنا واثقة فيك.

وكانت جملة "فريدة" كالماء البارد على قلبه الذي احترق شوقًا لها، واستشاط رعبًا من الذي يعيشه في هذا المكان الخالي من أي شيء. بينما كانت "فريدة" بالنسبة له هي كل شيء، فأردف "آدم" قائلًا:

– فريدة، أنتِ محتاجة تعرفي معلومات على اللي ممكن يحصل بعد شوية عشان تعملي حسابك. فيه حاجات ممكن تحصل وممكن متحصلش، بس لازم نحط كل الاحتمالات.

– خلاص.. ابقى قول لي أعمل إيه قبلها، ومهما حصل يعني أدينا مع بعض.. أكيد هنتصرف.

– أنتِ معندكيش فضول خالص؟!

– أنت عارفني إني كنت أكتر واحدة فضولية في الدنيا، بس لقيت إن الدنيا متستاهلش إني أعرف عنها حاجة!

نظر لها "آدم" في أسى وكأنه يحتضنها بعينيه، وتبادلا النظرات في تساؤلاتٍ ثم قاما ليتمشيا سويًا في الخواء المريب، ولكن الأكثر ارتيابًا هو الخواء الذي بداخلهما.

***

تمشيا "آدم" و"فريدة" كثيرًا ولم يشعرا بأي ألمٍ في أقدامهما، فعندما تمشي مع من تحب تنسى الآلام، وتشعر بنشوةٍ تنتابك تجعلك تطمئن أنك في مسكنك؛ فتنسى كل ما حولك ولا ترغب في شيءٍ إلا شيئًا واحدًا وهو أن تستمع لحكايات من تحبه التي لا تسأم منها رغم أنك تحفظها عن ظهر قلب!

رغم علم "آدم" بالكثير من الأشياء والمعلومات، لكنه يجهل كيف يفتح موضوعاتٍ شيقة؛ فهو قارىء ومستمع محترف، لكن الكلام الذي لا يوجد ما هو أسهل منه يراه أصعب الأشياء. فتفاجأ "آدم" بسؤالٍ من "فريدة" الذي جعله ينبهر بقدراتها الذهنية التي تجعلها تقرأ أفكار من أمامها دون أن ينطق بحرف! لكنه لا يعرف أن كثرة الخذلان والتجارب السيئة التي يعيشها الإنسان تجعل منه إنسانًا خبيرًا، يُشخّص الداء ويبقى طيلة حياته يبحث عن الدواء!

– عايز تسألني كنت مختفية ليه وأحكي لك زي زمان.. صح؟

قالتها "فريدة" في ثقةٍ عمياء جعلت "آدم" ينظر لها وقد جحظت عيناه؛ فضحكت من ذهوله ثم أردفت قائلةً:

– ما هو أصل أنا كتومة، وأنت مبتعرفش تفتح مواضيع، لو فضلنا كده في الصحرا دي هنموت مشلولين!

فضحك "آدم" هو الآخر ثم قال:

– أنا بس مستغرب من برودك ده، رغم إني لما شوفتك كنتِ بتعيطي!

شعرت "فريدة" بعد هذه الجملة بشيءٍ قد مسَّ كرامتها، وشعرت بغصة في صدرها؛ فكان وطء كلامه عليها كشوكةٍ غُرست في قلبها.

– كويس إني لقيتك وإنك أنت اللي شوفتني بعيط مش حد تاني، أنا عمري ما كانت دموعي بتنزل بسهولة، لكن لما بتتعرض لصدمات كتير في حياتك وبتفضل ساكت سنين، بتلاقي رصيد الدموع اللي حوشتها بيطلع!

– يعني مكونتيش بتعيطي عشان خايفة؟!

– أنا وأنت يا آدم مختلفين عن بعض، لكن زي بعض في حاجة واحدة؛ إنك عايش لوحدك فمش هيفرق معاك إن الدنيا فاضية، وأنا رغم إن حواليا ناس كتير دايمًا حاسة إني لوحدي. يبقى إيه اللي ممكن نخاف منه؟!

"فريدة" دومًا تخاف من الوحدة لكنها تكابر؛ لأن شعورها بالوحدة يجعلها ترتعب من أن يكون حقيقةً؛ فهي اعتادت على الحياة الصاخبة. بينما "آدم" فلماذا يأبه بهذا الخلاء الذي هبط على العالم بينما هو يعيش وحيدًا؟ ولا يعرف إذا كان سيموت وحيدًا أم لا؟ فتلك الفكرة لا تخيفه لأنه اعتاد عليها.

أما "فريدة" لديها خوفٌ دفين من أن تعيش وتموت وحدها، لكنها ترفض أن تعترف بذلك حتى تظل بمظهرها القوي، نُظهر أشياء ونضمر أشياء أخرى حتى لا يرانا الآخرين ضعفاء وقليلي الحيلة، نختبئ وراء الحقيقة الواضحة كوضوح الشمس وهي أن الإنسان خُلق ضعيفًا، ويا ليتنا ندرك أن في أحاسيسنا ومشاعرنا قوةً لا مثيل لها.

***

كانت "فريدة" محبة للحياة، ودودة، جريئة، شجاعة، ذات شخصية وحضور استثنائي، فتجد الجميع يحبها ويقف حولها. وكان عيد ميلادها الخامس والعشرين، هذا السن الذي يجعلك تشعر أنك تائهٌ، فلا تعرف هل كبرت أم لا زلت صغيرًا؟! قام أصدقاؤها بتحضير يومٍ رائع في بار بالزمالك، لقد اتفقوا مع صاحب البار أن تكون حفلةً خاصةً لها وحدها، قامت صديقتها المقربة "مي" بالتخطيط لهذا اليوم. وهي لا تشبه "فريدة"؛ فهي شقية، وودودة، وعشرية للغاية، سمراء اللون، قصيرة، شعرها مجعد وكثيف، ليست جميلة كفريدة، تحب أن تعيش اللحظة بكل تفاصيلها، لديها طباع جنونية.

اتصلت "بفريدة" لتتفق معها على يومٍ للخروج قليلًا في أي مكانٍ، فوافقت "فريدة" وذهبتا سويًا إلى ذلك المكان الذي كان خاليًا تمامًا، ثم تفاجئت بكم البشر الذي ظهر أمامها والكعكة الكبيرة التي لن يتبقى منها قطعة واحدة بعد قليل.

رغم أن "فريدة" لا تحب المفاجآت لكنها تقبلت ذلك وقامت بتقدير هذا المجهود العظيم؛ فما من شعورٍ أروع من أن تجد أشخاصًا في حياتك يهتمون لأمرك وهدفهم هو سعادتك، لكن "فريدة" تعرف جيدًا أن كل هذا مشهد تمثيلي كالذي تشاهده في الأفلام؛ فكل شخصٍ في المكان تجده خليطًا متنوعًا من حاقدٍ، ومتملقٍ، وشهواني، وغريب الأطوار.

كل شخصٍ يؤدي دوره بإتقانٍ، تسأل نفسها دومًا: من يحبني حقًا لشخصي؟! هي تعرف جيدًا أنه لا يوجد أحد، لكنها تنكر ذلك في الكثير من

الأوقات خاصةً في مثل هذه الأيام؛ حتى تستطيع أن تفرح ويكون يومًا سعيدًا عليها.

تلك الليلة التي لا تُنسى؛ فقد سهروا جميعًا لوقتٍ متأخر من الليل، وها هي ترقص "فريدة" مع أصدقائها الذين شربوا إلى حد الثمالة، بينما هي لا تشرب مثلهم؛ إنها تضع قوانين خاصةً لنفسها كما تضعها للآخرين، حتى إذا كانت متناقضة بعض الشيء، لكن من لديه الحق في أن يحاسبها سوى نفسها وخالقها؟!

كانت "فريدة" تبحث في كل الوجوه على وجه "آدم" الذي لم يحضر عيد ميلادها؛ فهو كعادته يشعر دومًا أنه غير مرحَبٍ به، ولا يحب ضجيج المنافقين؛ فيفضل حياته الهادئة مع كتابه وقهوته المفضلة في غرفته البسيطة التي تطل على بعض الأشجار الخضراء مثل قلبه الأخضر، الذي يحب من حوله ويحمل هموم أصدقائه كأنهم أولاده، وهو يعرف يقينًا أنه لن يجد من يحمل همه! ما أغرب الإنسان الذي يستلذ بتعذيب نفسه، ثم يشكو بأن العالم يحاربه ويتركه وحيدًا!

بينما كانت "فريدة" تبحث عن "آدم" في هذا الصخب وقعت عيناها على من أنساها نفسها، ورغم الموسيقى العالية في المكان لكن دقات قلبها كانت تطغى عليها، وتتلاحق أنفاسها وهي تجهل السبب؛ تحاول إيقاف تلك الضربات لكن عندما يقرر القلب شيئًا يتوقف العقل وتتجمد الأنفاس، رغم صغر القلب لكنه لديه من الهيبة ما يُذهل!

تخاف "فريدة" من الحب وسيرته؛ فهي دومًا تشعر أنها قوية بينما الحب يضعفها، أحيانًا تحسد "آدم" على شجاعته في الجلوس وحده منعزلًا، بينما هي تجهل أنه مضطرٌ وليس باختياره فاعتاد الانطواء، هذا الشيء الساحر الذي يشعرك بأنك تملك العالم، لكن رغم قوة "فريدة" فهي لا يمكنها أن تعيش بدون أي علاقة، فتقع في فخ العلاقات السامة التي تسحرها برونقها، ويا ليتها تتعلم من علاقاتها السابقة التي خاضتها! فدومًا تُحدث نفسها قائلةً: "هيحصل إيه أسوأ من اللي حصل؟!" فيحدث ما هو أسوأ بناءً على طلبها!

تجد "فريدة" الأسوأ حقًا، وتجذبه إليها بشدةٍ وهي تجهل سبب ذلك؛ لكنها أحست بأن هذا الشخص الذي وقعت عينيها عليه يختلف تمامًا عن جميع الأشخاص الذين عرفتهم من قبل. فتلاقت أعينهما ثم ابتلعت ريقها في توتر، وأحست برعشةٍ تسري في جسدها؛ فهي لا تحب ذلك الشعور رغم متعته، لكن كيف يكون شخصًا بهذا السحر فيخطف القلب من أول وهلة؟!

رجل طويل، قوي البنية، لديه حضور لا يقل عن "فريدة" بل أكثر، واثق الخطى وكأنه صاحب المكان، وسامته وجاذبيته تعد خطرًا على أي فتاة، حوله الكثير من الناس، لم ترَ منه شيئًا بعد غير أنه كان متكئًا على الطاولة في منتهى الرزانة والثقة، أسمر اللون، يبدو على ذراعيه القوة، وعلى وجهه الكبرياء وعزة النفس، تلك الهيبة التي تشعل فضولك لتعرفه عن قرب، تلك الجاذبية التي تجذبك إليه لا إراديًا، ذلك السحر في نظراته الذي لا تقاومه أي فتاة ويشعرها أنه فوق الجميع؛ فتشعر بالفضول حتى تعرف لماذا هذه

الفوقية؟ يقتلها فضولها أيضًا لمعرفة السر وراء التفاف الجميلات حوله، فتسأل نفسها: "ما وراء هذا الساحر؟!"

تلاحظها "مي" وكأنها سكبت على وجهها دلوًا من الماء البارد لتستفيق، فتقول:

– ده "جاسر"، مش فاكراه؟!

يصيبها الذهول وتنظر نظرة تعبر عن الانبهار، فترد على "مي":

– "جاسر" اللي كان معانا في المدرسة؟!! ده بقى حاجة تانية خالص!

– ده الواحد بيتغير في سنة، مش هيتغير في عشر سنين!

تذكرت "فريدة" صديق الدراسة "جاسر"؛ فهو كان من المشهورين في المدرسة؛ كان لديه كاريزما عالية وكان أيضًا يعرف كيف يُضحك من حوله، كانت لديه تلك السيطرة التي جاء بها إلى الدنيا منذ أن كان طفلًا.

استفاقت "فريدة" من ذكريات المدرسة عندما رأت "جاسر" يقترب منها ورأسه مرفوعٌ كأنه لا يهتم لأحد، لكنه اختار أن يذهب إليها من وسط الجموع، وفي كل خطوة يخطوها فتتمنى "فريدة" أن يقترب أكثر، لكن في نفس الوقت تتمنى أن تبتلعها الأرض حالًا ومآلًا فتختفي عند اقترابه!

وصل إليها "جاسر" وهو يمد يديه لها، بينما هي تشعر أن ريقها قد جف وحدث شللٌ مفاجئ بجسدها وبرودة في أطرافها؛ فابتسمت ومدت يدها برقةٍ لتسلم عليه؛ فشعرت فجأة بحرارةٍ سرت في جسدها.

– كل سنة وأنتِ طيبة يا فريدة.

قالها "جاسر" بصوته الرخيم وبثقته المعهودة؛ فارتبكت "فريدة" قليلًا قائلةً:

– أكيد طبعًا إن شاء الله.

ابتسمت ابتسامةً بلهاء وهي تقولها، ابتسامةً امتدت إلى أذنيها وهي لا تعرف ماذا تقول، ثم ابتلعت ريقها في توتر فتدخلت "مي" لإنقاذ الموقف قائلةً:

– يااااه يا جماعة بقالنا كام سنة مشوفناش بعض!

فقال "جاسر" وهو ينظر إلى "مي" لكنه يلمح على "فريدة":

– أصل فيه ناس مبتسألش ومقصرة معانا جامد.

تنظر "مي" إلى "فريدة" بابتسامةٍ ماكرةٍ ثم تنظر إليهما وتتجاهل ما قيل، ثم تضحك ضحكةً خفيفةً وتتظاهر بأنها تسمع الموسيقى وتنظر حولها في المكان، فيهم "جاسر" بالذهاب إلى أصدقائه قائلًا لهما:

– انبسطت أوي إني شوفتكم، يا ريت أشوفكم تاني.

ابتسمتا له ثم شردت "فريدة" قليلًا وطال نظرها له وهو يبتعد عنها، فأفاقتها "مي" كعادتها قائلةً:

– يا بنتي فكك، انتم مش شبه بعض خالص أصلًا!

– إيه يا بنتي الهبل ده! فاكس طبعًا ده شكله تافه.

يجلس "جاسر" على رأس الطاولة وصوته عالٍ وهو يحكي حكايات وطرائف حدثت له في حياته، وفي كل جملة يعج المكان بالضحك.

خطف "جاسر" الأنظار من "فريدة"، لكنها لم تستاء بل أُعجبت بشخصيته الفريدة! وكادت تلك الليلة تنتهي ولم يشح "جاسر" نظره عن "فريدة"، بينما هي تغتصب نظرةً له تارة وتشيح بنظرها عنه تارة أخرى، بينما "مي" تراقبهما عن كثبٍ مبتسمةً، ثم جاء وقت الرحيل لأنه قد تأخر ميعاد عودتها إلى البيت؛ فقد أخذت إذنًا من والدتها "دكتورة إيناس"، لكنها كالعادة منشغلة في عيادتها النفسية. أما والدها فهو منفصل عن "إيناس" منذ سنواتٍ، ويقوم بزيارتهما بين الحين والآخر.

فهو دومًا منهمكٌ في عمله ويضعه في أولوياته أكثر من أي شيءٍ في حياته، لكن "فريدة" تحب دومًا أن تتظاهر بأنه لديها أهلٌ يخافون عليها، وفي نفس الوقت شعرت بأن "جاسر" أصبح هو صاحب عيد الميلاد بسبب إثبات وجوده بشدة وسط الجميع، فهو يجيد التصنع حتى يظن الآخرون أنه حقيقة!

تهم "فريدة" بالذهاب وتسلم على أصدقائها، فتفاجئت بفتى أحلامها الجديد يعلو صوته قائلًا:

– مش عارف ليه فيه ناس مصممة تقصر معانا؟!

فنظرت له باستغرابٍ ضاحكةً تحاول أن تفهم، فاقتربت "مي" من أذنها تهمس لها:

– قصده إنك ماشية من غير ما تسلمي عليه يعني!

فاستدارت حتى لا يرى وجهها وهي ترفع حاجبها "لمي" مبتسمةً نصف ابتسامة، فالتفت والتف شعرها معها محاولةً إظهار بعض الكبرياء والرقة قائلةً:

– مستعجلة والله يا جاسر، سوري بجد، مخدتش بالي، انبسطت أوي إني شوفتك. ميرسي يا جماعة.. باي.

رفعت يدها للجميع تسلم عليهم ثم، ذهبت مسرعةً من المكان، فذهبت "مي" وراءها.

وبعد ما قالته "فريدة" نظر "جاسر" ناحيتها نظرةً غير مفهومة للجميع، وثبتت بؤرة عينيه في مستوى نظره وهو ينقر على الطاولة، وتحرك فكاه حركةً توضح أنه قد اغتاظ قليلًا؛ فكيف لا تسلم عليه سلامًا يليق به؟ فهو الرجل الذي تتهافت عليه الفتيات ومعه مفاتيح العالم.. كما يظن!

فقام أحد الحاضرين بقطع حبل أفكاره ومقاطعة شروده قائلًا:

– كمل لنا بقى حكايتك، إيه اللي حصل بعد ما ضربت الظابط اللي اداك مخالفة؟!

"فريدة" و"مي" لا زالتا في الخارج تقفان بجانب سيارة "فريدة" التي تفاجأت بأنها مُكلبشة، ولا تعرف ماذا تفعل؟ ويظهر أنهما تتمتمان بكلامٍ غير مفهومٍ في عصبية وخوف، فوجدتا "جاسر" يمسك بتليفونه المحمول يكلم أحدًا، ثم تفاجأ بوجودهما فأغلق مع المتصل ثم ذهب إليهما سريعًا؛ ليطمئن على "فريدة"، فاقترب بثقةٍ وطمأنها قائلًا بثقةٍ ورزانة:

– متقلقيش خالص، بتحصل كتير وبخلص الموضوع ده في ثواني.

فقالت "فريدة" وهي متوترة:

– أنا بجد عايزة أروح ومش هعرف أسيب العربية هنا، ومش عارفة أعمل إيه بجد؟

فقام بتهدئتها تمامًا، ثم قام ببعض الاتصالات وبعد ذلك أقنعها بأن يوصلها إلى بيتها، ويترك السيارة هنا وسوف تصل عند بيتها في الصباح الباكر؛ فاطمأنت من ثقته المفرطة وأعطته ثقتها التي لا تعطيها لأحدٍ بسهولة، لكن هناك أناسًا يخطفون ثقة من أمامهم بدون أن يشعروهم بذلك.

تركت "فريدة" سيارتها وذهبت لتركب سيارته الفخمة التي كانت دومًا تحلم بأن تمتلك سيارة مثلها، بينما "مي" فضّلت أن تدخل إلى المكان وتقضي بقية اليوم مع أصدقائها، فانطلقا كل من "جاسر" و"فريدة".

***

تفاجأت "فريدة" أنه قام بتغيير مساره، وقام بالسير في الشوارع بلا هدف ليطول الكلام بينهما، وقد استسلمت لذلك ولكنها سألته:

– إحنا رايحين فين؟

– لا مدام أنتِ في عربيتي مينفعش تسألي.

فابتسمت وأشاحت بوجهها عنه وهي تومىء برأسها متعجبةً، فقال مازحًا:

– لا هتلفي لي وشك ومترورديش عليا أنزلك.

فاستدارت بوجهها وحاولت إظهار وجه الصرامة الذي لا يليق بها قائلةً:

– يا عم أنت هتذلنا ولا إيه، خلاص نزلني وأنا هتصرف.

فضحك على طريقتها الطفولية فقال:

– أنا أقدر بردو! أنا بهزر معاكِ! فيه حد يبقى معاه القمر وينزله، ده حتى انهارده عيد ميلادك ومينفعش أروحك زعلانة، دي الناس تاكل وشي!

فصمتت "فريدة" ولكن وجهها هو الذي تكلم عندما اشتد احمراره من الخجل، وظهرت ضحكتها التي حاولت أن تخفيها، ثم أوقف "جاسر" سيارته جانبًا قائلًا لها:

– عشان عيد ميلادك النهارده بس أنا مسامحك.

فنظرت له متعجبةً فأردف قائلًا وهو يضحك:

– متقلبليش وشك بقى، تعالي هأكلك في المكان ده.

ثم أشار إلى مطعمٍ فخم؛ فنظرت في اتجاه إصبعه ثم قاطعته قائلةً:

– لا.. لا والله أنا متأخرة جدًا بجد.

فنزل من السيارة وفتح لها الباب، وفي حسمٍ قال لها:

– يلا.. مش هأخرك.

فأخذت شهيقًا طويلًا ثم زفرته لتخفي توترها، واستسلمت لجرأته وإصراره على قراره؛ فنزلت من السيارة ليدخلا المطعم سويًا.

***

اتصلت "مي" "بآدم" فرد عليها ثم قالت له مباشرةً:

– إيه يا ابني مجتش العيد ميلاد ليه؟!

– أنتِ عارفة بقى يا مي مليش في الدوشة والزحمة.

– يا ابني كفاية كآبة بقى!

– يا بنتي مش كآبة، كل واحد وله طبيعته يعني. المهم تكون انبسطتوا فريدة عاملة إيه؟!

– طب ومي؟! تولع يعني؟!

قالتها "مي" في غيظٍ ثم ضحكت؛ فضحك "آدم" هو الآخر معتذرًا لها ومبررًا أن "فريدة" هي صاحبة عيد ميلاد، فطمأنته عليها ثم قالت:

– كانت مولعة الدنيا، فاتك كتير وكالعادة الولاد ملمومين حواليها وهي عمالة ترقص.

تعجب "آدم" من كلام "مي" عنها ثم شعر أنها ثملة من آثار الخمر، فاقتضب كلامه معها ثم أنهى الاتصال.

***

انتهت الأمسية السعيدة بين "فريدة" و"جاسر" بضحكٍ شديدٍ في سيارته؛ فكان يحكي عن مغامراته الطريفة التي كانت عبارة عن صولات وجولات قام بها، وبالطبع معظمها مصتنع من وحي خياله ليضفي جاذبية ويملأ نقصه، بينما هي لا تقوم بشيءٍ سوى الضحك على كلامه والانبهار بتجاربه الأسطورية.

ثم أوصلها إلى بيتها في الزمالك وهي ممتنة له امتنانًا شديدًا ولا ترغب في أن تتركه وتذهب، انتظرت أن يقول شيئًا ولكنها بدأت كلامها قائلةً:

– ميرسي أوي على النهارده، مش عارفة أقول لك إيه.

فنظر إليها نظرةً مليئةً بالثقة والغرور، وابتسم ابتسامةً خفيفةً وأومأ برأسه موافقًا بثقةٍ قائلًا لها:

– ابقي اشكريني على حاجة تستاهل! بكره إن شاء الله عربيتك هتبقى عندك، خدي رقمي وابعتي لي عالواتساب، ولو فيه أي حاجة هقول لك.

سحب "جاسر" الكارت الخاص بعمله من تابلوه السيارة وأعطاه "لفريدة" ممسكًا به بإصبعيه، ابتسمت "فريدة" وفرحت كثيرًا ثم أخذت الكارت ونظرت فيه، فوجدت أنه مديرٌ بشركة عالمية تعمل على تصنيع منتجات شهيرة؛ فظهر عليها الذهول قائلةً:

– ده إحنا ناس مهمين أوي بقى!

فقال "جاسر" مازحًا:

– أمال أنتِ فاكرة إيه؟! إحمدي ربنا بقى إنك راكبة معايا.

فضحكا هما الاثنان ثم نزلت من السيارة تودعه وتشكره مرة ثانية، فابتسم لها وأومأ برأسه ثم تحرك بسيارته، فوقفت وهي شاردة الذهن ثم وجدت رسالةً من "آدم" يهنئها بعيد ميلادها، وكانت رسالة مفعمة بالمشاعر وكان محتواها:

"كل عام وأنت بخير يا فريدة.. يا من حقًا في كل شيء فريدة
من يعرفك لا يحتاج شيئًا.. فأنت من يجعل أوقاتنا سعيدة
قلبك مليء بالحب والحنان.. تتلخص فيكِ معاني الإنسان
تبتعدين فأشعر بالضياع.. تقتربين فتختفي الأشجان
ابتسامتكِ تملأ حياتي حياة.. فأنت مصدر البهجة والسعادة
روحكِ نقية كمصفاة.. وربنا ما يقطع لنا عادة"

اختتم "آدم" قصيدته ببعض الكوميديا حتى لا يكون مبالغًا؛ ولأنه يحب أن يجعلها تضحك فحزنه من حزنها وسعادته من سعادتها، فأرسلت "فريدة" رسالةً له تضحك فيها بينما عقلها لا يتوقف عن التفكير في "جاسر"، ثم شكرت "آدم" كشكرها لأي مندوب مبيعاتٍ تشتري منه شيئًا، لكن "آدم" يعطيها ما هو أغلى من أي شيءٍ، يعطيها قلبه عن طيب خاطرٍ لتشعر به قليلًا، فتعيده له بكلماتٍ باردة تجامله بها يستقبلها "آدم" محاولًا أن يعطي لنفسه تبريراتٍ تحميه من الوقوع في بئر الإحباط، كلمات يحدث بها نفسه مثل:

"هي أكيد راجعة تعبانة".. "كفاية إنها مبسوطة".. "عادي يعني هي دي طريقتها".. "أصلها مكسوفة".

يحاول جاهدًا أن يفكر في جميع الأعذار، وينكر الشيء الوحيد الحقيقي، وهو أنه مثل أخيها وهذا ما يجعله يتراجع عن الاعتراف بحبه لها؛ حتى لا يخسرها إلى الأبد!

***

يجد "آدم" هاتفه يرن، ثم يجد صديقه المقرب الوحيد "كريم"، يقول له بأنه ينتظره تحت بيته ليخرجا سويًا؛ فينزل "آدم" له ويركب السيارة ثم يتردد كالعادة أين يذهبان؟ فينطلقان بالسيارة في الشوارع بدون هدفٍ ويتكلمان قليلًا، ثم يجد "كريم" أن صديقه "آدم" مزاجه سيء فيفاجئه قائلًا:

– فريدة بردو؟!

فيضحك "آدم" وينظر له نظرةً تعبر عن قربهما الشديد الذي يجعلهما يفهمان بعضهما بدون أن ينبس أحدهما ببنت شفة! فُيخرج "آدم" ما في جُعبته قائلًا:

– مبحبش التجاهل يا كريم ولا البرود، ومش فاهم ليه البنات غاويين يحبوا الولاد الشمال؟!

– ما يمكن عشان هما شمال!

– لا.. لا.. لا مش شرط، أكيد فيه أسباب تانية، يمكن المشكلة فيا. أنت عارف أنا بيجي لي أفكار كتير مش كويسة عن فريدة؛ بخاف تكون حد شمال كده زي ما بتقول، وبتضايق من نفسي لما بفكر فيها بالطريقة دي.

يحاول "كريم" بأي طريقةٍ أن يُخرج "آدم" مما هو فيه، فلا يعرف كيف يرضيه هو صديقه المخلص الذي يهون عليه ويحب أن يجبر بخاطره دومًا، فقال "لآدم":

– لا يا عم بلاش جو التشكيك اللي أنت فيه ده، أنا فاكر أيام المدرسة إن فريدة كانت من الناس المحترمة.

– خلاص يبقى أنا اللي متحبش واتكتب عليا أفضل وحداني!

قالها "آدم" في اندفاعٍ وبكل ثقةٍ بصوتٍ مكتومٍ، فهو يعرف في قرارة نفسه أنه لا يستحقها ولا يستحق أي فتاة أخرى! "فآدم" دومًا يشعر أنه منبوذ ويشك في أن الناس لا تفهمه ولا تحبه بدون سبب؛ ولذلك هو وحيد!

وقف "كريم" بسيارته جانبًا أمام "بطاطس آند زلابيا" ثم فتح زجاج السيارة وطلب بطاطس وكورن دوج؛ فتعجب منه "آدم" قائلًا في انزعاجٍ:

– أنت مسألتنيش ليه؟! هو أنا مش موجود يعني؟!!

– عشان هتفضل تفكر ساعة فطلبت لك نفس الحاجة اللي بتطلبها كل مرة!

أومأ "آدم" برأسه موافقًا ومستسلمًا لقراره وهو يبتسم ابتسامةً خفيفة، ثم أردف قائلًا:

– مش عارف يا كريم أنا بحبها أصلًا ولا لأ، بس أنا عارف نفسي إني مبحبش بسهولة، وهي غير كل البنات اللي عرفتها.

– معلش هقاطعك بس.. أنت معرفتش بنات في حياتك أصلًا!

ثم ضحك "كريم" ولكن "آدم" بدا عليه أنه تضايق من كلامه، فجاء الطعام ثم قرر "كريم" أن يعزمه، وقدم له البطاطس وأخذ هو الكورن دوج قائلًا:

– يا آدم أنت لسة قفوش، فكك بقى يا عم، كمل كمل.

– خلاص، مفيش حاجة تاني أقولها.

قالها "آدم" في يأسٍ فزفر "كريم" زفرةً تعبر عن غيظه، ثم تمالك أعصابه قائلًا:

– طيب بص أنا فاهمك كويس من غير ما تقول حاجة، وإحنا اتكلمنا في الحوار ده مليون مرة.

بدا على "آدم" أنه منصتٌ له ويأكل في هدوءٍ، أخذ "كريم" حفنة من البطاطس وأدخلها في فمه مكملًا:

– الناس دي مش شبهك، مفيش حاجة اسمها البنت بتحب الباد بوي، الفكرة وما فيها إن فيه ناس في الأول بتكون جريئة ومش سالكة، وأنت شخصية خجولة ومبتعرفش تكدب وتمثل زيهم!

ظهر على "آدم" أنه لم يفهم شيئًا، فقال له متسائلًا:

– يعني أعمل إيه؟!

– متعملش حاجة شوف اللي شبهك، أنت فريدة عكسك دي واحدة بتحب السهر والرقص والتنطيط وتافهة أصلًا، وأنت عاقل وبتحب القراية والهدوء، دي رياضية كمان وأنت أنتوخ يعني تكومك في أي خناقة!

ثم ضحكا سويًا ولكن ظهر على "آدم" أنه لم يعجبه الكلام؛ فهو من الأشخاص العنيدة الذي يريد من صديقه أن يوافقه على جميع قراراته، حتى إذا كان عقله يعرف أنها قرارات خاطئة، لكن قلبه يحب المخاطرة قليلًا!

أرسلت "فريدة" رسالةً على الواتساب "لجاسر" تشكره كثيرًا وتعبر له عن امتنانها، ثم انتظرت منه أن يرد ولكنها تفاجئت بتجاهلٍ تام؛ فهو يتقن فن التجاهل تحت مسمى "التقل"، بينما "آدم" كان ينتظر منها ردًا آخر مفعمًا بالمشاعر، لكنه لم يستقبل منها شيئًا؛ فكلاهما ينتظر ما ينقصه، وكلٌ منا يقبل ما اعتاد عليه.

عاد "آدم" إلى بيته مصابًا باليأس، ويشعر أنه سيعيش ويموت وحيدًا؛ فهو اعتاد على الوحدة ولكنه يفتقد الأُنس، يفتقد تلك المشاعر التي تشعره

أنه يستحق أن يعيش، هناك من يعيش ليحب الآخرين فقط، ولكنه لا يستقبل ذلك الحب فيشعر أن هناك شيئًا ناقصًا.

"آدم" يجهل أنه لا يوجد أحد يزيد أو ينقص بوجود شخص، لكنه الخوف ذلك الشبح الذي يُشعره دومًا بأنه لا بد أن يستمد قيمته من الآخرين، حتى لا يولد لديه شعورًا بالنقص والدونية، لا بد أن أن يكون هناك شريك حياة لتكتمل الحياة، فبدونه أين قيمة الشخص؟! لكن الحقيقة التي يخفيها الحب هي أن قيمة "آدم" محفوظة ومقدسة، سواء كانت "فريدة" معه أو لا!

تعجبت "فريدة" من تجاهل "جاسر" لها، لكن الشيء الأعجب أن ذلك التجاهل جعلها تتعلق به واقتربت من الوقوع في شِباك حبه! وما أعجب البشر عندما يهتمون بمن يتجاهلهم! ويتجاهلون من يهتم بهم! وكأنهم يضعون أنفسهم في تحدٍ لإثبات قيمتهم لمن لا يعطي لهم قيمة!

فلماذا نهتم بمن يتجاهلنا؟ ونتجاهل من يهتم بنا؟ من يتجاهلنا نسعى في البحث عنه وإرضائه! يرسل لنا رسالة عابرة فنقفز فرحًا وكأننا فزنا بتذكرة سفر، وربما تذكرة السفر لن تفعل بنا ذلك!

لكن من يهتم بنا لا ننبهر باهتمامه! رغم أننا نشعر بمحبته لنا وهو يطمئن على أحوالنا دائمًا، لكننا لا نشعر بالشغف؛ لأننا ننتظر ذلك من الذي يتجاهلنا ويقلل من قيمتنا، فنستمر في دائرة تعذبنا وتجعلنا نصير تعساء!

هل هذا غباء من عقولنا؟ أم هذه قرارات قلبية ليس لنا يد فيها؟!

وماذا نفعل حيال ذلك؟ كيف نخرس هذا القلب الذي يرغب في من ليس له؟!

كيف نجعل القلب يحب من يرغب به؟! كيف نوقف تلك القرارات التي يصدرها العقل بدون إذن منا؟

ومتى نجد من يهتم بنا ونهتم به ويكون هناك تبادل من الطرفين؟ أين ذلك الكنز المفقود المسمى "الاهتمام"؟!

ربما الإنسان الجحود ونفسه الشهوانية هي التي ترغب دومًا في ما لا يملكه ويأخذ ما يضمنه كحق مكتسب؟

يا ليت هناك زر يجعلنا لا نهتم! لكن هل تستطيع "فريدة" ذلك؟! وهل يقوى "آدم" على فعل هذا؟!

لعل متعة الحياة تكمن في اهتمامنا بالآخرين ولو لم نلقَ تقديرًا، فبدون الصراع بين العقل المغرور والقلب الطائش، وبدون الاهتمام والتجاهل لن يكون هناك شيئًا مثير في الحياة نستحق أن نحيا لأجله؛ فالشعور جنة وليس لعنة ندرك به قيمة إنسانيتنا.

أحيانًا كثيرة تكون رغباتنا هي التي تتدخل وتسوقنا لأفعالٍ جنونية، وهي التي تتحكم وتسيطر ثم ترمي اللوم على العقل والقلب؛ فتخلق بينهما عداوة لكنهما أبرياء! فالرغبة الجامحة هي العدو اللدود الحقيقي، هي الشيطان الخفي الذي يكمن في النفس الخداعة التي تجعل شهواتها تظهر بأنها الحب النقي الذي لا يشوبه شائبة؛ حتى تستدرج ضحيتها بهدوءٍ، ثم تتصور الضحية الساذجة أنها وجدت حبها الخالص المغلف بنار الشهوة المتأججة؛ فيُسرق عقلها ويُغتصب قلبها وتُنهش روحها.

***

لم يشعر "آدم" و"فريدة" بالوقت تمامًا؛ فعندما يكون الشخص مع من يحبه ينسى الزمان والمكان وينسى نفسه أيضًا؛ فالزمن يكون نسبيًا والوقت لا يكون وقتًا مع من تحب؛ لأنه يتوقف! "آدم" يشعر مع "فريدة" أن الساعة تمر في دقيقة فيرغب في المزيد، بل عندما يكون وحده فالساعة تكون كشهر أغسطس بشمسه الحارة الذي يمر كمرور قرنٍ!

ينظر "آدم" في ساعته فقاطعها قائلًا في ذعرٍ:

– معلش بس أنا آسف، ممكن تكملي حكي بعدين!

ثم فجأة انقطعت الأنوار كلها حولهما ولم يتبقَ سوى ضوء القمر، لكن "آدم" كان يكفيه نور "فريدة" الذي يضيء روحه، فأوقفت "فريدة" كلامها عن ماضيها ونظرت له خائفةً تحاول أن تفهم ما يحدث حولها؛ فأمسك يدها وعادا سريعًا إلى مكان سيارتها؛ فتعجبت "فريدة" وهي تجري معه ثم أوقفته قائلةً:

– إيه الجنان ده أنا مش فاهمة حاجة! فيه إيه؟!

فنظر "آدم" في ساعته وشرح لها أنهما لا بد أن يقوما ببعض الترتيبات؛ فأحست بالذعر وقالت في غضبٍ:

– وليه مقلتليش؟!!

فنظر "آدم" لها متعجبًا:

– عشان أنتِ قايلة لي متقولش حاجة غير قبلها بشوية.

– وهو كده قبلها شوية؟!! كنت تقول لي من بدري!!

– فريدة أنتِ مشوفتيش نفسك وأنتِ بايعة الدنيا، وبتقولي لي إيه اللي هيحصل يعني كأنك مش مهتمة بحاجة!

ثم زفرت "فريدة" زفرةً طويلة في غيظٍ؛ فحاول "آدم" أن يهدىء من روعها قائلًا:

– خلاص أنا آسف، ممكن تهدي بس ويلا نرجع دلوقتي، وأوعدك إني هفهمك على كل حاجة.

– روح أنت لوحدك!

وقفت "فريدة" وهي يبدو عليها الغضب ووضعت يديها على خصرها كالأطفال، بينما "آدم" يعرف جيدًا جنون النساء، خاصة جنون "فريدة" الذي يراه ذا طابع خاص؛ فكانت منذ قليل لا تأبه بشيء لكن عندما حدث ذلك الشيء غير المفهوم توترت، وألقت كل اللوم على "آدم"؛ فهو لا يسأم أبدًا من تصرفاتها الطفولية، فجنون الأنثى في عين المحب براءة وجمال!

نظر "آدم" حوله فلم يجد أحدًا بكل تأكيدٍ، فنظرت "فريدة" له وهي تتظاهر بأنها العاقلة لتقول:

– يا ابني أنت مجنون!! إحنا لوحدنا.

فتركها "آدم" ليعود وحده؛ فأصابها الذعر وتعجبت من موقفه فصاحت قائلةً:

– سيبني لوحدي، تمام.. براحتك على فكرة.. ومش عايزة أعرف حاجة!

ثم جلست على الطريق الخالي تمامًا من كل شيء، ووضعت يديها على وجنتيها كطفلة صغيرة، فضحك "آدم" واستدار لها ثم نظر إلى ساعته قائلًا لها في ثباتٍ:

– هتيجي معايا ولا إيه؟! إحنا في كارثة يا فريدة!!

ثم نظرت له وهي خائفة لكنها تحاول أن تُخفي هذا الشعور الذي كادت عيناها أن تكشفه؛ فالعيون لا تكذب خاصةً على من يفهمها جيدًا؛ فقامت غاضبةً ومستسلمةً ثم أمسكت بيد "آدم" وهي واثقة به، فمشيا سويًا إلى السيارة ليأخذا الأغراض من هناك شارحًا لها ما تريد أن تعرفه:

– إحنا السنة اللي فاتت كنا في حظر عشان الكورونا، بعدها بقى فيه لقاحات، وفيه أكتر من تفسير لكل حاجة بتحصل دلوقتي، والتفسيرات دي هقولها لك بعدين، بس هقول لك الأول العلماء اتوصلوا لإيه؟!

– والله أنت على ما تشرح هيكون جالنا شلل نصفي!

نظر لها "آدم" في تعجبٍ ثم قرر ألا يُكمل، فتحايلت عليه قليلًا بدلالٍ لتصالحه مبررةً له بأنها تمازحه كعادتها، فأكمل قائلًا:

– العلماء بيقولوا إن إحنا لو صحينا في يوم لقينا الأرض فاضية مفهاش أي كائن حي.. فاللي وارد يحصل إنه بعد عشر ساعات من بداية اختفاء البشر الكهرباء كلها هتقطع عن العالم.

فقاطعته "فريدة" متسائلةً:

– زي اللي حاصل دلوقتي كده؟

– بالظبط، الموبايلات والعربيات كمان كلها هتتعطل.

– طب اشمعنى إحنا اللي مختفيناش زي باقي البشر؟!

هز "آدم" كتفيه معبرًا أنه لا يعرف وكاد أن يكمل تفسير ما يحدث، فأشاحت "فريدة" بيدها قائلةً:

– أمال إيه اللي بتقرا ومثقف وبتاع!

فضحك "آدم" على تهكمها قائلًا:

– يا فريدة فيه حاجات العلماء نفسهم عجزوا عن تفسيرها؛ الإنسان نفسه يعرف كل حاجة لكنه مهما عرف هيفضل علمه ناقص، على طول فيه تساؤلات عنده، بس يمكن لو عرفنا الإجابة مش هتريحنا أو مش هنفهمها.

فبدأت "فريدة" تفكر وهي تمشي معه عائديْن إلى سيارتها حيث أغراض "آدم"، فقطع حبل أفكارها قائلًا:

– بتفكري في إيه؟!

– يمكن دي آخر أيام الدنيا والقيامة هتقوم علينا.

– لكنها هتقوم على الكفار.

– ما يمكن نكون كفرة وإحنا مش دريانين!

– ليه؟! بتعبدي إيه؟!

فنظرت له وعيناها حائرةً ثم قالت:

– مبعبدش حاجة!

فوقف "آدم" مذعورًا وعيناه جاحظتان لا يصدق ما قالته!

كانت "فريدة" تعبد الله كأنها تراه، لكنها بعد تجارب مريرة قررت أن تلحد مؤقتًا؛ فكانت دومًا تسأل نفسها "أين الله؟!" و"لماذا يفعل هكذا بي؟!"؛ فهي كانت تعبده حتى يقضي لها مصالحها، لكنها عندما وجدت نفسها ضائعة وخسرت كل شيءٍ فلماذا تتعب نفسها إذن في العبادة؟! فهي ترى أن

ما سيحدث لها ليس أسوأ مما هي فيه! شعرت أن الإله لا يحبها، وأنها قد خُلقت صدفة كصدفة اختفاء البشر، وكصدفة لقاء "آدم"!

أكمل "آدم" و"فريدة" مسيرهما إلى السيارة في صمتٍ تام، ثم أعطى لها بعض الأغراض مثل: شموع، كشاف نور، طعام، شراب لينفعهما في هذه الفترة الغامضة، فحاولت أن تسأله:

– هو إيه اللي هيحصل بعد كده؟!

فنظر لها "آدم" بابتسامةٍ زائفةٍ قائلًا:

– خليها مفاجأة!

فتفاجأت "فريدة" من إجابته الباردة قائلةً:

– طبعًا قليت في نظرك لما عرفت إني بقيت كافرة صح؟!

– يا فريدة "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" بس الفكرة كلها في إني بحبك.

اندهشت "فريدة" مما قاله واتسعت عيناها وظهر عليها الخجل، فكرر ما قاله:

– أنا بحبك يا فريدة، أنا مؤمن بربنا وبرحمته، لكن لو مش مكتوب لنا إننا نبقى مع بعض في الدنيا كنت بتمنى إن إحنا نبقى مع بعض في الجنة؛ لأن الجنة من غيرك مش هتبقى جنة وأنتِ جنتي!

لم تعرف ماذا تقول بعد كل هذا الكلام، ثم قالت له ساخرةً:

– أنت خلاص يعني دخلتني النار؟!

– مش قصدي، رحمة ربنا واسعة لكن...

فقاطعته قائلةً:

– اقنعني طيب ليه اللي بيحصل فينا ده؟! اقنعني بوجود ربنا؟! ليه مش شايفينه؟!

– عشان يا فريدة لو إحنا شايفينه مش هيبقى فيه حاجة اسمها إيمان! والإنسان مش عايز أحكام تقيده، لكن لو فكرنا شوية كان ممكن النبي يقول على نفسه إنه هو الإله، ليه ينقل كلام من الوحي ويقول إنه من ربنا؟!

فتحتار "فريدة" وتظل صامتةً وهي تنظر له وتنصت لما يقوله، فيكمل قائلًا:

– إزاي رسول من البشر يعرف حاجات تحت البحر، وفي السما، وتكوّن الجنين وحاجات ميعرفهاش غير إله؟! ده حتى فيه أحاديث بتتكلم عن الغيب، إزاي إنسان بشري يعرفها؟!

فترد عليه "فريدة" قائلةً:

– عادي.. فيه ناس بتعرف حاجات غيبية!

– طيب، ولما الرسول ينقل عن إله عايز مصلحتنا وهو غني عننا، ده يبقى اسمه إيه؟! ومين خلقك بالدقة دي وبالجمال ده؟ معقولة الأجهزة اللي شغالة جوه أجسامنا دي أو رسمة عينيكِ دي تكون صدفة كونية؟!

فضحكت "فريدة" قائلةً:

– ده أنت بتعاكس بقى!

فأردف "آدم" قائلًا:

– بصي يا فريدة، يمكن فيه حاجات كتير حوالينا مش مفهومة، بس أينشتاين وداروين اللي كرسوا نفسهم للعلم جم في الآخر وقالوا إنه أكيد فيه

إله عبقري ورا الكون ده، إحنا عقولنا صعب تفهم ده عشان كده ربنا سايب حاجات ملهاش تفسير زي الجن والأحلام وغيرها، فنسلم إن فيه خالق ونؤمن بوجوده ونروح الجنة!

فابتسمت "فريدة" له في خجلٍ ونظرت له في تأثرٍ وحب قائلةً:

– كل ده عشان عايزني معاك في الجنة يا آدم؟!

فأشاح "آدم" بوجهه بعيدًا وابتسم ابتسامةً تدل على موافقته لكلامها، ونظر لها نظرةً مفعمة بالمشاعر كأن عينيه تعانق عينيها عناقًا مليء بالحب والعاطفة، ففاجأته وهي مبتسمة قائلةً:

– طيب أنا بهزر معاك يا عبيط.

فنظر لها متعجبًا وشعر بإحراجٍ شديد أنه اعترف لها بحبه، وأنها خدعته فقال لها في تحدٍ:

– طيب أنا مش هشرح لك حاجة بقى.

فاقتربت منه في دلالٍ ونظرت له بعينيها الساحرتين إلى أن شعر بحرارةٍ تسري في جسده وقُشعريرة تحتل أطرافه، ثم قالت:

– ولا تقدر.

أدلفت "فريدة" بوجهها فسمع ضربات قلبه كأنها تريد أن تقفز خارج جسده، ثم شعر برغبةٍ شديدة في تقبيلها بينما تتلاحق أنفاسه، فاقتربت منه أكثر وأغمضا عيونهما وكادت شفتيه تقضم ثغرها، ثم فجأة سمعا صوت نباح كلبٍ مرعب!

فقاما ليبحثا عن مصدر الصوت، ثم وجدت "فريدة" كلبًا من نوع "الهاسكي" يجري تجاههما؛ فتراجع "آدم" وخاف منه قائلًا:

– حاسبي يا فريدة!!

فجلست "فريدة" على الأرض لتلعب مع الكلب وقد هز ذيله ولعق وجهها وهي تضحك، فتعجب "آدم" من شجاعة فريدة بينما هي تعجبت من خوفه، ومن الغريب أنه شعر بالغيرة من كلب! فكيف تتركه هكذا؟!

– مالك يا "آدم" متسمر كده ليه؟!

قالتها "فريدة" وهي متعجبة من موقفه؛ فنظر لها وقال:

– أصل أنا بخاف من الكلاب شوية.

– معقولة! دي الكلاب دي هي الحاجة الوحيدة اللي بتهون عليا الحياة، بتحسسني إنه لسة فيه خير في الأرض، مليانين إخلاص ووفاء. غير البشر اللي مليانين غدر وخيانة!

فغضب "آدم" وأخذ كلامها على محمل شخصي، ثم أخذ أغراضه قائلًا لها:

– طيب خلي بقى الكلب ينفعك.

نظرت "فريدة" إلى "آدم" متعجبةً وهو يمشي مبتعدًا عنها، ثم عاد إليها مكملًا:

– وخليه بقى يقول لك إيه اللي هيحصل بعد كده!

فضحكت "فريدة" وتركته يمشي بعيدًا، وكان "آدم" متوقعًا أن تمشي وراءه لتلحقه، لكنه اتجه إلى بيته وتركها تلعب مع الكلب الذي قررت أن تسميه "سولي"، وبينما كان يسير وحده في الظلام شعر بظل شخصٍ ضخم وراءه، فاستدار ولم يجد شيئًا ثم سمع طرقًا؛ اقترب قليلًا من مصدر الصوت وكان كصوت طرقات عصا "بيسبول" على جدار! فكان هناك ناصية شارع أمامه فرأى هذا الشبح يظهر ظله من بعيدٍ مختبئًا خلف جدار العقار الذي

يوجد على الناصية، علت صوت الطرقات كلما يخطو "آدم" خطوة، وكانت صوت دقات قلبه أعلى من تلك الطرقات، فكان يرتعد خوفًا وفضوله يقتله ليعرف من هذا الشخص الذي يطارده في ذلك الفراغ والظلام البهيم! ثم توقف "آدم" عندما رأى الطرقات قد توقفت، وذلك الظل بدأ يتحرك ليظهر أمامه ويراه "آدم" بعينيه المذعورتين التي اتسعت حدقتهما كاتساع السماء، وأُظلمت روحه كظلمة الليل.

تسمع "فريدة" صراخًا فتجري بحثًا عن "آدم" و"سولي" يجري معها ورائها، فقد تعلق بها بسرعة كتعلقها بمن حولها، تستمر في الجري وهي لا تعرف من أين يأتي الصراخ؟ تريد أن تنقذه مهما كان الخطر الذي يواجهه، فتظل تبحث وتجول في الشوارع وهي لا تزال لا تفهم شيئًا، إلى أن تجد "آدم" في وضعية الجنين بجانب عقاره يصرخ ويبكي على الطريق! فتأخذه بين أضلعها وتحاول تهدئته غير مدركة ما يحدث، لا زالت تائهة وضائعة تنظر حولها فلا تجد سوى فراغٍ واسعٍ و"آدم" غارقٌ فيه لا يجد من ينقذه! وهي في حيرةٍ من أمرها ولا تعرف متى تفهم ماذا يحدث؟!

يستمر "آدم" في البكاء والصراخ، وفي كل صرخةٍ تضمه "فريدة" أكثر لصدرها حتى يشعر بالأمان، بينما هي التي تريد أن تشعر بهذا الأمان الذي فقدت الأمل أن تجده في حياتها.

***

كان "آدم" تلميذًا طيب القلب خجولًا، وفي المدرسة كانت معه "فريدة" و"جاسر"؛ ذلك الشخص الوحشي الذي لا يمر يومٌ إلا ويبرح "آدم" ضربًا بدون أي ذنبٍ. وفي يومٍ من الأيام كان "جاسر" يمشي في المدرسة بخيلاء، ثم رأى "آدم" بجانبه فصفعه صفعةً أوقعته على الأرض؛ فكتم "آدم" دموعه وقد ارتعب من عنفوان "جاسر" وشكله المُهيب وطوله وعرضه الذي كان يرعب كل من يراه، ولكن "آدم" قام من الأرض ونفض الغبار بينما كان "جاسر" يضحك، وإذ يتفاجأ أن "آدم" اغترف من الرمال وألقاها على وجهه! فبدا على "جاسر" الغيظ الشديد وقد احمر وجهه، فارتعد "آدم" ثم جرى هاربًا من غضب "جاسر".

لكنه أمسكه قبل أن يهرب وحمله كأنه حقيبة ودفعه على الحائط، ثم أوقعه على الأرض ثم لكمه لكمةً على وجهه، وقام بركله في بطنه جعلت "آدم" يشعر أن روحه تصعد إلى السماء ثم أخذ يبكي بكاءً شديدًا، ولكنه وجد "مي" و"فريدة" صديقته الحنون جاثية على ركبتيها، تربّت على كتفه وتساعده هي و"مي" على النهوض، ثم نظر "جاسر" لهما نظرةً مليئة بالغضب والتعجب.

ذهبت "فريدة" و"مي" مع "آدم" إلى مكتب مديرة المدرسة "منى"؛ ليشكوا لها، ولكنه رفض التحدث لأنه خاف من رد فعل "جاسر" العنيف. بينما كانت الناظرة تعده بالأمان التام، ثم اتفقا على ميعادٍ لتجيء والدة "آدم"، و"جاسر"، و"مي"، و"فريدة" بما أنهما شاهدتان على الواقعة التي اعتاد عليها "آدم" وكأنه روتين صباحي؛ حيث أنه يقلق إذا لم يواجهه في يومه.

مسكين "آدم"! ذنبه الوحيد هو قلبه الصغير الذهبي الذي لا يليق بالغابة التي يعيش فيها، وكانت الناظرة لا تعرف أي شيء عن أن التنمر، والضرب، والشتائم يحدث في مدرستها المحترمة! ولذلك استدعت أولياء الأمور لتضع حدًا لكل متنمرٍ؛ ليكون عبرةً لمن يعتبر خاصةً أمام من قاموا بتربيته!

جاء اليوم الذي اجتمع فيه أولياء الأمور ليحضروا اجتماعًا مغلقًا مع المديرة، ولكنها سمحت بأن يتواجد كل من "فريدة"، "مي"، "آدم"، و"جاسر" الغاشم لكن "فريدة" كان والداها مشغولين كعادتهما فلم يحضرا، ولكنها كانت حاضرة كشاهدة وهي تشعر بالوحدة واليُتم. أما "مي" فتجلس بجوارها والدتها، ترتدي حجابها وتنظر للحاضرين نظرةً مخيفةً وكأنها تتفحص كل شخص، ثم تميل إلى أذن ابنتها هامسةً:

– يعني لا طالعة حلوة زي البت فريدة ولا شاطرة زيها، ولا حتى عارفة تكعبلي عيل من العيال دي! هتفضلي موكوسة كده لحد امتى! ده كلها سنتين تلات وتدخلي الجامعة!

يظهر على والدة "مي" الحقد والغيرة، بينما ابنتها "مي" تتضايق كثيرًا من انتقاد أمها لها ومقارنتها بالآخرين وجعلها تشعر بالدونية.

ثم يجلس "آدم" ووالدته بجواره، سيدة طيبة ومغلوبة على أمرها دومًا تقول لآدم بألا ينشغل بتلك التفاهات قائلةً له:

– سيبهم يهزروا معاك وبلاش دلع خليهم صحابك!

فبالرغم من طيبة قلبها ولكنها في أغلب الأوقات سلبية، وتجعله يشعر بالذنب الشديد وتشعره دومًا بقلة الحيلة.

بينما آخر الجالسين هو المتهم والجاني "جاسر" حيث تجلس والدته بجواره سيدة أنيقة، ويظهر عليها الغرور والعنجهية، تمسك سيجارتها بإصبعين وتزفر في ملل، ترمق الحاضرين بنظراتٍ تعبر عن اشمئزازها.

لا تعبأ بأحد سوى ابنها الوحيد فلذة كبدها، فتقطع هذا الصمت وتقول بصوتٍ عالٍ وبنبرة مستفزة:

– مش فاهمة يعني جايبينا المدرسة عشان نبص في وشوش بعض ولا إيه!

ثم يأتي الرد من والدة "آدم" في غُلب:

– يا ستي اتقي الله، ده ابنك اللي اتعدى على ابني، وكمان ليكِ عين تتكلمي!

– هو اللي ولد متدلع وحساس! أنا ابني بيهزر معاه، ما يكبر كده ويسترجل زيه!

– الله يسامحك.

فيتدخل "آدم" هامسًا في أذن والدته:

– دي بتقول على ابنك متدلع ومش راجل مش هتردي عليها؟!

فأشاحت بيدها تعبيرًا عن قلة حيلتها، ثم همس "جاسر" في أذن والدته قائلًا:

– شوية وهنمشي يا ماما إهدي بس.

فأومأت برأسها موافقة بينما نظراتها تعبر عن الضيق، تبادلت النظرات بين "جاسر" و"آدم"؛ نظرات "جاسر" مليئة بالإستفزاز والاستحقار، ونظرات

"آدم" تعبر عن الألم والإحباط والغيظ، ثم قاطعهما صوت الباب الذي تفتحه الناظرة؛ لتبدأ هذا الاجتماع لتوضيح الأمور جيدًا وليتم معاقبة المعتدي وتعويض الضحية.

يسود الصمت بينما تجلس "منى" على رأس المكتب الذي يجلس عليه الحاضرون، ثم تبدأ قائلةً بنبرةٍ جدية:

– إحنا هنا في المدرسة الأولاد بييجوا يتعلموا، مبيجوش عشان يتضربوا أو يتهانوا.

ثم تنظر "لجاسر" بعد آخر جملة، ولكنه ينظر لها في عدم اكتراثٍ؛ فتردف قائلةً:

– وإحنا مبنسمحش لحد يمد إيده على طالب.

فتقاطعها والدة "جاسر" في سخريةٍ وبنبرةٍ مستفزة:

– والله!! والمدرسين اللي بيمدوا إيديهم على الطلبة دول إيه بقى إن شاء الله؟!

فتنظر لها "منى" في تحدٍ قائلةً:

– والله حضرتك الكلام ده ينطبق على المدرسين والطلاب، وبالنسبة لي فيه طلاب محتاجين يتربوا من أول وجديد، وده بقى دور المدرسة لو البيت معرفش يقوم بدوره!

تستشيط والدة "جاسر" غضبًا، ولكنها تتمالك أعصابها وتكبح جماحها حتى لا تتشوه صورتها أمام الجالسين؛ فتتدخل والدة "آدم" قائلةً:

– والله حضرتك ابني المفروض بيجي عشان يتعلم مش عشان يتضرب!

كتم "جاسر" ضحكة خفية لاحظها "آدم" فنظر له نظرة غيظ، ثم قالت "منى":

– ابن حضرتك هنجيب له حقه، وعايزة أعرف دلوقتي إيه اللي حصل بالظبط؟ فياريت كل واحد يقول اللي شافه وبعدها في الآخر هسيب "آدم" و"جاسر" يتكلموا. اتفضلي يا "فريدة" ابدأي.

بدأت "فريدة" بالكلام:

– إحنا على فكرة بنحب آدم بس يمكن هزار جاسر يكون غشيم شوية، والمرة اللي فاتت جاسر هزر معاه بطريقة عنيفة وأول مرة بجد أحس ان آدم اتوجع واتألم جامد.

تبادلت النظرات بينهم جميعًا ثم تكلمت "مي":

– هو تقريبًا كل يوم ده بيحصل، بس مش مع آدم بس! هو بيحصل معانا كلنا عادي يعني، وأنا على فكرة اشتكيت كتير إنهم بيتنمروا عليا، بس خلاص.. كبرت دماغي وبقيت آخد الموضوع بهزار.

فتدخلت والدة "جاسر":

– تبقى المشكلة في آدم مش في ابني، هو اللي مبيعرفش يتعامل، أنا عارفة ابني كويس راجل وطيب وقوي بس مبيستقواش على حد إلا بقى لو اللي قدامه استفزه.

فقاطعتها والدة "آدم":

– وأنا ابني استفزه في إيه إن شاء الله؟!

فأسكتتهم المديرة بحسمٍ قائلةً:

– إحنا جايين نشوف حل، مش جايين نتخانق!

ثم قالت والدة "جاسر":

– حل لإيه أصلًا؟! أنا ابني معملش حاجة، أنتم جايين تتبلوا على الناس؛ الولد بيهزر مع صحابه كون بقى إن آدم ده ياخد الهزار بحساسية ويقفش زي العيال دي مشكلته مش مشكلتنا خالص!

فقالت "منى":

– هو حضرتك مش شايفاهم عيال مثلًا؟!

فابتسمت والدة "جاسر" نصف ابتسامة قائلةً:

– أنا شايفة إن ابني كبير، وهيفضل طول عمره كبير، ومش هسمح لحد يتهمه اتهامات باطلة.

فتدخلت والدة "آدم" متعجبةً:

– باطلة!! باطلة إزاي يا مدام؟! ده بسبب ابنك لقيت آدم داخل البيت وعينه وارمة!

فضحكت والدة "جاسر" قائلةً:

– إنتِ اللي مش عارفة تعلمي ابنك يدافع عن نفسه!

فقالت "منى" لها:

– إنتِ بتبرري التنمر؟!!

– إنتِ اللي لسه قايلة إنهم عيال، يعني ده هزار مش تنمر، ولا حضرتك كنتِ في مدرسة المدينة الفاضلة!

– أنا هضطر أنهي الاجتماع لأني مش قابلة طريقة كلامك، وأنا اللي هتصرف مع "جاسر" مدام البيت مش عارف يتصرف معاه.

قالتها "منى" بعصبية، فنظرت والدة "جاسر" لها في تحدٍ:

– لو عرفت إن ابني حد لمسه المدرسة دي هتتقفل من بكرة.

نظرت لها "منى" في ترقب وشعر "جاسر" أنه سيصبح عدوًا لدودًا؛ فأحب أن يهدىء من هذا التصاعد قائلًا للمديرة:

– معلش يا ميس والله، هي ماما مش قصدها حاجة وآدم صاحبنا كلنا، هو أنا يمكن اتغاشمت عليه شوية، بس خلاص يعني حصل خير، ده هزار يعني.. وأنا هزاري كده!

فتدخلت والدته:

– يلا يا جاسر نقوم نمشي.

فقاطعتها "منى" قائلةً:

– أنا مقلتش لحد يمشي، وجاسر هيعتذر لآدم.

ثم وجهت كلامها للجالسين قائلةً:

– ولا إيه رأيكم؟

فالجميع وافق بإيماءة برأسهم متفقين عدا والدة "جاسر" قائلةً:

– هو أنتم عايزين ابني يعتذر وخلاص! اعتذر يا حبيبي النهارده واعمل اللي أنت عايزه بكرة، وأي حد يكلمك قول لي!

فظهر الحنق على وجه "منى" ولكنها حاولت كبح جماحها، فاستعادت رباطة جأشها قائلةً:

– على فكرة نبرة التهديد دي يعني مش بتاكل معانا، حضرتك في مدرسة محترمة، ولو وراكِ ناس تقيلة، فإحنا ورانا ناس أتقل وده لو وراكِ أصلًا!

فقامت والدة "جاسر" بالجز على نواجذها ورفعت حاجبها، وبدأت تتلاحق أنفاسها ثم صمتت وعلى وجهها نظرة بها كبرياء وتعالٍ، فقالت "منى" "لآدم" في تحدٍ:

– قوم يا آدم اضرب جاسر زي ما ضربك قدامنا كلنا.

فرمقتها والدة "جاسر" بنظرةٍ غاضبة، ثم قاطعتها والدة "آدم":

– خلاص إحنا سامحنا جاسر ومش عايزين مشاكل، دول عيال وبيهزروا مع بعض، ولو عايزينا إحنا اللي نعتذر لكم أنا وآدم إحنا موافقين.

ابتسمت والدة "جاسر" وشعرت بالانتصار، ثم نظر "آدم" لوالدته في صدمة وخذلان بينما تعجبت "منى" من رد فعلها قائلةً:

– إزاي؟! ده أنتم اللي معاكم الحق!

فقالت والدة "آدم":

– يا مدام أنتم قلتوها، كل ده لعب عيال، ولما يكبروا هينسوا كل اللي حصل ده!

نظرت "منى" في أسى وقالت "لآدم":

– طيب أنت إيه اللي يرضيك يا آدم يا حبيبي؟

فقال "آدم" في براءةٍ وقلة حيلة:

– لو ده اسمه هزار.. فأنا مش عايز حد يهزر معايا تاني، وبالذات جاسر.

تدخلت "فريدة" قائلةً:

– هو أنا بس حابة أقول حاجة، إن الإهانة والضرب عمره ما كان هزار!

فنظر لها "جاسر" متعجبًا قائلًا:

– هو مش أنتِ اللي أول ما جه المدرسة كنتِ بتتريقي عليه، وبتشجعيني أضربه عشان نتفرج ونضحك كلنا ولا نسيتِ؟!!

فساد الصمت وكانت نظرات "آدم" تعبر عن الصدمة في صديقته التي اعتبرها مقربة لقلبه، و"فريدة" أيضًا كانت مصدومة في ما قاله "جاسر" علنًا.

***

استيقظت "فريدة" وهي متعبة من ليلة أمس، ليلة عيد ميلادها وجهها مكفهر من التعب، وتزفر في مللٍ ثم تقوم من على سريرها وتترنح يمينًا وشمالًا، فتعود لتجلس على السرير مرة أخرى وهي ممسكة برأسها وتشعر أن هناك صداعًا أوشك على الهجوم، ثم تمسك بهاتفها المحمول فتجد العديد من الرسائل لتهنئتها، ولكنها تتجاهل جميع الرسائل باحثةً عن رسالة واحدة.

رسالة قادرة على أن تقلب يومها من يوم سيء وممل إلى يوم مبهج وسعيد، وها قد حدث فعيناها التقت برسالة "جاسر" المقتضبة التي لا تحمل الكثير من المشاعر، ولكن يكمن بداخلها أطنان من الاهتمام:

– عربيتك تحت يا فريدة، المفتاح مع البواب، أي خدمة.

فارتسمت ابتسامة على وجهها وتراجع الصداع الذي قد اقترب من احتلال رأسها، وقد دب النشاط في جسدها.

دكتورة "إيناس" والدة "فريدة" تتكلم في الهاتف وصوتها يكاد يصل إلى آخر البلاد، فتنزل "فريدة" مسرعةً لتطمئن على أمها فتجدها قد أغلقت الهاتف وألقته على الأريكة أمامها في غضبٍ، ثم تسأل "فريدة" عما حدث فتقول لها "إيناس" في غضب:

– أبوكِ هيشلني، حتى بعد ما انفصلنا مش عارفة أخلص منه ومن نكده!

فتشعر "فريدة" بالأسى على تفكك أسرتها الذي تعتبره شيئًا مقدرًا لا يمكنها تغييره، فتحاول "فريدة" تهدئة روعها قائلةً:

– معلش يا ماما، ده أنتِ دكتورة نفسية، إزاي يعني تتعصبي بالسهولة دي؟!

فتصيح "إيناس":

– يعني هو أنا عشان دكتورة نفسية أبقى جبلة مبحسش! هو أنا مش بشر؟! ليه دايمًا بتحسسوني إني لوحدي؟! حرام عليكم بقى! كلكم عاقلين وأنا اللي مجنونة؟! محدش فاهمني ولا حد حاسس بيا، بعالج الناس وبشوف مالهم ومحدش فكر يقول لي مالك!!

فتجد هاتفها يرن بإسم "جاسر"، فتنظر لهاتفها وتشعر بسؤالٍ في رأسها: "لماذا تجيء الأشياء المفرحة في الأوقات الخاطئة؟!"، ثم تنظر لوالدتها التي تحبس دموعها وتجلس على أريكتها منهارةً، فتحاول "فريدة" أن تحرص على هدوئها وتربّت على كتفها قائلةً:

– طيب مالك يا مامي يا حبيبتي؟!

فحدجتها "إيناس" بنظرة لومٍ قائلةً:

– مفيش حاجة، روحي شوفي وراكِ إيه وسيبيني لوحدي.

فتقوم "فريدة" وتنظر لها نظرة شفقة، ثم تمر من أمام المرآة وهي ترى والدتها وراءها منهارة تبكي، بينما "فريدة" واقفة فتشعر أنها انعكاس لوالدتها؛ حتى الشعور بالوحدة يمكنه أن يكون وراثيًا.

تخرج "فريدة" من البيت وتترك والدتها، فتجد سيارتها عليها بعض الزهور المتفتحة؛ فيتفتح وجهها بابتسامةٍ عريضة، فتتجه إلى سيارتها وتأخذ الزهور ثم تدخل سيارتها لتجد كارت بإسم.. "آدم"!!

فتشعر بصدمةٍ ومفاجأة؛ فهذا ليس ما توقعته تمامًا ولكنها لماذا استاءت بهذا الشكل؟! هل لأنها توقعت الاهتمام من شخصٍ آخر؟! أم لأن الاهتمام جاء من شخصٍ لا تعتبره يصلح أن يكون شريكًا لحياتها؟!

فاتصلت "بجاسر" ليرد بعد برهة قائلًا:

– هنتقل بقى ولا إيه؟!

فضحكت رغم أنه لم يقل شيئًا يُضحك، ثم قالت:

– سوري والله اتسحلت مع مامي بس...

فقاطعها قائلًا:

– العربية تمام؟!

فردت عليه ممتنة:

– ميرسي أوي بجد.

ثم قال لها:

– ولا أي حاجة، وراكِ إيه النهاردة؟!

ثم ابتسمت وهي تشعر أنها في الطريق إلى مغامرة جديدة على وشك الابتداء مع شخصٍ جسور مثل "جاسر"، ثم تفاجأت بمكالمة من "آدم"، فتجاهلت مكالمته وقالت "لجاسر":

– أنا مش ورايا حاجة النهاردة خلينا نظبطها.

ثم أنهت الاتصال لترد على "آدم" وهي في طريقها إلى عملها قائلةً:

– يا آدم يا جميل، ميرسي عالورد أوي، مكنش له لزوم تتعب نفسك!

ففرح "آدم" لفرحة "فريدة" قائلًا ببراءةٍ:

– أهم حاجة إنك تبقي مبسوطة، دي أكتر حاجة بتبسطني. فاحمر وجه "فريدة" خجلًا وحاولت إنهاء الاتصال سريعًا، ثم أكملت طريقها وهي سارحة في "جاسر" بينما زهور "آدم" بجانبها أوشكت على الذبول! توقع "آدم"

رد "فريدة" أن يغمره بعاطفة جياشة، لكن ما أسوأ التوقعات! ترسم لنا لوحة فنية مكتملة الأركان ثم تأتي ريحٌ عاصف لتمزقها وتتحول إلى سراب!

اتصلت "مي" "بآدم" تطمئن عليه وتتفق معه على يوم ليخرجا سويًا؛ فوافق "آدم" قبل أن يختنق من وحدته غارقًا في أيام مملة متشابهة، يسودها الصمت قد اعتاد عليها واعتاد على خلوها من أي مشاعر؛ أحيانًا كثيرة رغم اعتياده يفتقد إلى تلك الحالة الغامرة بالحب، والاشتياق، والحميمية.

ينهي "آدم" الاتصال مع "مي" ليفتح صور "فريدة" ويبتسم لابتسامتها التي تهون عليه حياته قليلًا، ويتمنى أن تكون ابتسامتها له فقط؛ فهو بدونها وحيد، ولكن معها يشعر بالأنس وكأن الناس جميعهم حوله؛ فبالنسبة له. هي الناس بل أجمل الناس رغم أنها لا تبادله المشاعر، ولكنه سمح لنفسه أن يكون معها.. أشقى الناس!

ثم يظهر "جاسر" في مكتبه الفخم وتدخل سكرتيرته التي تسحره بجمالها وبجسدها المغري، بل ما يغريه هي ملابسها التي تظهر مفاتنها، فتدخل عليه المكتب وتغلق الباب ثم تقترب منه وتضع ورقًا على مكتبه وتهم بالشرح، ولكنه يسرح في ثديها أكثر من أي شيء آخر، بينما هي تنظر في عينيه وتحرك رأسها في غنجٍ ودلال وتتكلم برقة شديدة، فيفاجئها كعادته بأن يمسكها من خسرها ويضمها إلى صدره فتضحك، ثم يلتهم ثغرها ويغرق في شفتيها فتستسلم له تمامًا، ثم يقاطعهما نقرًا على الباب فتفزع السكرتيرة وتقوم من على ساقه، بينما هو يُعدل من ملابسه ويربّت على شعره ويقول بكل صرامةٍ:

– ادخل.

فتدخل "مي" وهي تنظر إلى "جاسر" والسكرتيرة بجانبه، فتشعر أنها دخلت في وقتٍ غير مناسب فتفهم كل شيء؛ خاصةً عندما تجد المكتب غير مرتب من آثار ما يضمره "جاسر" خلف مظهره الأنيق وخلف منصبه، ولكن "مي" لا تعبأ بأي شيء يحدث، بل كل ما تعبأ به هو أن تكون مكان السكرتيرة!

فيقطع "جاسر" ذلك الصمت وتلك النظرات قائلًا:

– فيه حاجة يا مي؟!

فتقول له:

– فيه حد قاعد بره بيسأل عليك.

ثم ينظر "جاسر" لسكرتيرته نظرةً تعبر عن رحيلها واستكمال عملها، فتقول السكرتيرة:

– أنا رايحة أشوفه.

فتنظر "لمي" كأنها تغيظها ثم تنظر لها "مي" في كيد، وبعد أن تخرج السكرتيرة فتستأذن "مي" هي الأخرى لتهم بالخروج.

ينادي عليها "جاسر" فتقف مذهولةً، ثم يسألها:

– بقول لك إيه يا مي، عايزك تحكي لي شوية عن فريدة.

فتلتفت "مي" إليه وتبتسم ابتسامةً خبيثةً يملؤها اللؤم والحقد أيضًا، ثم ينظر إليها منصتًا لها تمامًا.

***

يجلس "آدم" على كرسيه في غرفته البسيطة، وينظر من النافذة على ذلك الفراغ الذي وجد نفسه منغمسًا بداخله؛ فهو لا يعرف إذا كان الفراغ الذي بداخله أكبر؟ أم أنه لا يوجد فراغ سواه؟! ثم يجد "فريدة" تربّت على كتفه وتجلس أمامه على كرسي وبجانبها كلبها "سولي" الذي أصبح رفيقها؛ فقامت بإشعال الشموع لتنير ذلك الظلام، بينما "آدم" يرى أن نور "فريدة" يكفي أن ينير غرفته ويملأ خواء روحه.

ثم قامت بعمل "كاكاو" له ولها أيضًا، جلست أمامه ويبدو عليها أنها لا تفهم أي شيءٍ ولكنها صامتة تربّت على ركبته، وهي جالسة أمامه تواسيه وتخفف من روعه، بينما هي بداخلها هواجس مفزعة تحتاج لمن يخرسها قليلًا قبل أن تفقد عقلها.

ينظر "آدم" إلى القمر المكتمل ثم ينظر إلى "فريدة" نظرةً يملؤها الحب وكأنه يحتضنها بعينيه؛ فصورة "فريدة" لا تبارح خياله ولا تبارح واقعه، فأحيانًا كثيرة لا يعرف الفارق بين الواقع والخيال؛ لأن "فريدة" تستحوذ على عقله وقلبه، ثم تنظر له "فريدة" متعجبةً من حاله ومما حدث منذ قليل، فتبادر وتسأله:

– إيه اللي حصل يا آدم؟! أنت شوفت إيه بالظبط خلاك تتفزع كده يا حبيبي؟!

تجاهل "آدم" سؤالها وكأنه لا يرغب في الإجابة، وكانت كلمة "حبيبي" من شفتيها القرمزية رغم عفويتها ورغم أنها لا تقصد معناها الحقيقي، لكن

كان وطأها عليه كالماء البارد على قلبه المحترق من شدة اشتياقه، ثم اقترب منها بكوب من "الكاكاو" وقال:

– بصي يا فريدة، أنا هفهمك على كل حاجة، بس مش عارف أنتِ هتستوعبي اللي هقوله ولا لأ!

فنظرت له "فريدة" وقد ازداد تعجبها وأُثير فضولها، ثم اقتربت منه لتنصت باهتمام، فأردف "آدم" قائلًا:

– أول حاجة لازم تعرفيها إن فيه أبحاث أثبتت إن لو البشرية اختفت هيحصل كوارث، يعني وارد نلاقي حيوانات بكرة في كل حتة حوالينا، بعدها ممكن يحصل انفجارات والزمن مش هيبقى له معنى وهنلاقي آآ..

فتقاطعه "فريدة" في فزعٍ قائلةً:

– يا آدم طيب هو إحنا ليه مختفيناش؟! هو إحنا مش بشر؟! يعني ليه الكوارث دي تحصل لينا إحنا بس؟! ليه إحنا اللي فاضلين؟! كفرة إحنا يعني ولا كائنات فضائية؟!

فيبتسم "آدم" ثم يومىء برأسه في قلة حيلة قائلًا:

– ما هو ده اللي عايزك تستوعبيه كويس، فيه احتمال نكون اتنقلنا بالزمن، واللي إحنا فيه دلوقتي ده المستقبل. أو فيه احتمال تاني وهو إن إحنا نكون في عالم موازي.

فتضحك "فريدة" ساخرةً من كلامه، ثم يُكمل "آدم" مبتسمًا:

– أنا عارف إن اللي بقوله ده جنان، بس هي دي ضريبة القراية الكتير.. عقلنا بيضرب!

– بس الكلام ده مش واقعي.

– مفيش حاجة اسمها واقع، الواقع حسب اللي دماغك شايفاه ومصدقاه.

ثم تقول له "فريدة":

– بص هو أنا مش مقتنعة.. بس كمل يعني، حابة أعرف وأفهم أكتر؟

فيبدأ "آدم" بالشرح:

– هو مبدئيًا كده أي حاجة بقولها دي اجتهادات من علماء، لكن مش شرط تكون صح، بس الحاجة اللي هقولها لك دي تجربة حقيقية حصلت. في يوم 23 إبريل 2006، في مدينة "كييف" عاصمة "أوكرانيا"، كان فيه شاب اسمه "سيرجي بارامانينكو" الشاب ده كان لابس لبس موضة الخمسينات وكان شايل في إيده كاميرا تصوير عتيقة، وكان طول ما هو ماشي في الشارع كان بيبص حواليه باستغراب، لحد ما كان فيه ظابط وقفه مكانه وقاله يوري له بطاقته.. عارفة لقى إيه؟

فابتلعت "فريدة" ريقها ولم ترد، لكنها انتظرته يُكمل كلامه الذي جعلها تسمع نبضات قلبها من الخوف، فقال "آدم" مُردفًا:

– لقى بطاقته مكتوب فيها إنه مولود يوم 16 يونيو 1932!

فقاطعته "فريدة" متعجبةً وساخرةً:

– إيه جو فيلم سمير وشهير وبهير ده!

فضحك "آدم" قائلًا:

– ده فيه حكاوي حصلت أكتر من كده، وأفلام وثائقية تثبت صحتها، بس استني هكمل لك. المهم بدأوا يحققوا معاه ويسألوه أسئلة زي أنت

ساكن فين وكده يعني، وردوده كانت عبارة عن حاجات في الماضي مبقاش ليها أي أثر! بعدها ودوه مستشفى للأمراض العقلية، وكان فيه دكتور اسمه "بابلو كيتريكوف" وعلى فكرة المقابلة دي اتصورت صوت وصورة. فبدأ الدكتور يسأله أسئلة زي اتولدت سنة كام وعندك كام سنة، وهو كان مصمم بردو على أقواله إنه عنده 25 سنة ومولود سنة 1932 فالدكتور حب يمشي معاه للآخر فسابه يحكي له على اللي حصله بالظبط.

بدا على "فريدة" الاستمتاع بالحكاية وكان كلبها بجوارها عيناه جاحظتان وكأنه ينصت "لآدم" ويفهم كلامه، فدلفت قليلًا وقالت "لآدم" في فضول:

– هاا وبعدين إيه اللي حصل؟!

فاستكمل "آدم" كلامه:

– الدكتور سأله الأول إحنا سنة كام؟ فصدمه بإجابته لما قاله إحنا سنة 1958 المفروض. فالدكتور قاله بس إحنا في 2006 فسيرجي كان باين إنه متوتر جدًا وحاسس إنه تايه ومش فاهم حاجة، بعدها حكى له اللي حصل إنه كان ماشي في الشارع بيصور بالكاميرا بتاعته، بعدها لقى جسم غريب في السما لونه أسود بيطير راح صوره بسرعة، لكن فجأة لقى نفسه بعدها في زمن غير الزمن وشكل الناس مختلف والشوارع مختلفة!

فقالت "فريدة":

– وإيه اللي يثبت إن كلامه صح؟! ما هو ممكن يبقى مجنون فعلًا!

فأكمل "آدم":

– سيرجي قال للدكتور إنه ممكن يحمض الصور اللي في الكاميرا عشان يصدقه، بعدها اكتشفوا إن موديل الكاميرا اللي معاه قديم جدًا واتوقف من الستينات! المهم الدكتور قال إحنا هنشوف حد مختص يتصرف.

فجه شخص عشان يشوف الحوار ده فاستغرب إن إزاي كاميرا قديمة كده ويكون شكلها جديد وحالتها كويسة جدًا؟! حتى الفيلم اللي في الكاميرا مباظش والمفروض أفلام الكاميرا اللي زي دي بتبوظ لوحدها بعد فترة، بعد كده المختص اتصرف وحمض الفيلم وطلع الصور ولقى صورة فيها الجسم الغريب، وصورة لسيرجي متصور فيها هو وصاحبته، وسيرجي كان متصور بنفس اللبس اللي لابسه وهو قاعد مع الدكتور. طبعًا الدكتور والراجل المختص كانوا هيتجننوا.

فجحظت عينا "فريدة" وتسارعت ضربات قلبها وغاصت في كرسيها الوثير قائلةً:

– مش مصدقة بجد!!

ثم أردف "آدم" يحكي:

– الدكتور لما شاف الصور استغرب جدًا، وبعدها لقى سيرجي متعصب وعمال يقول صدقتوني دلوقتي؟!! لكن الدكتور مصدقوش وحجزه في أوضة في المستشفى بس بعدها بساعات.. لقوا "سيرجي" اختفى!

فنظرت "فريدة" بتعجب شديد وقطَّبت جبينها ولم تفهم شيئًا، ثم قال "آدم":

– بعدها الشرطة الأوكرانية اهتموا جدًا بقضية سيرجي، وقرروا يحققوا مع الأشخاص المفقودين أيام الاتحاد السوفيتي، ولقوا فعلًا إنه كان فيه بلاغ في الخمسينات عن شخص مفقود اسمه سيرجي، لكن القضية بتاعته اتقفلت واتسجل من ضمن الوفيات. فراحوا لصاحبة سيرجي اللي كان متصور معاها اسمها "فالانتينا"، قدروا يوصلوا لها لكن طبعًا بقت ست عجوزة، فطلعوا صورتها مع سيرجي وسألوها عنه، فقالت لهم أيوه ده صاحبي واختفى قدامي في الخمسينات أيام الاتحاد السوفيتي، وكنت مقدمة بلاغ إنه مفقود وراحت ورت لهم صورها هي وهو. وبعد كل التحقيقات دي الدكتور صدق سيرجي فعلًا والشرطة اتأكدت إن سيرجي اختفى مرتين: مرة في الخمسينات، ومرة في الألفينات لكن راح فين؟ وإزاي ده حصل؟ الله أعلم!

فصمتت "فريدة" وكأنها ابتلعت لسانها، ثم اعتدلت في جلستها قائلةً في توتر:

– أنا مش فاهمة حاجة!

فقال "آدم":

– مش لازم نعرف كل حاجة يا فريدة، ربنا ساب حاجات في الدنيا دي منفهمهاش عشان منتغرش بعلمنا ونقول سبحان الله من قلبنا بجد، مهما الواحد علمه زاد بردو هيفضل قليل. على أد ما فيه علماء في حياتنا كبار بيخترعوا ويبتكروا على أد ما ربنا بيوريهم عجزهم وضعفهم.

فقالت "فريدة":

– يعني إحنا ممكن نكون اتنقلنا لزمن تاني وبقينا في المستقبل؟!

فحرك "آدم" كتفيه في قلة حيلة معبرًا عن حيرته وعدم معرفته الكاملة.

شرد ذهن "فريدة" قليلًا ثم قالت في قلقٍ:

– تفتكر الكورونا هي اللي عملت كده.. أو اللقاحات؟! أو يمكن...

فقاطعها "آدم":

– كفاية يا فريدة فضول وتفكير كتير، مش هتوصلي لحاجة يا حبيبتي، إذا كان الإنسان عجز عن فهم عقل الإنسان مش كل حاجة هنلاقي لها إجابة، إحنا عقولنا عظيمة لكنها محدودة، وبعدين يمكن الإجابات متريحناش! عامة دي كلها احتمالات وفيه علماء أكدوا إن السفر للمستقبل حاجة مش مستحيلة. وأحمد زويل نفسه طلع وقال كده دي حقيقة فيزيائية، بس لسه مش قادرين نتحكم فيها.

فقالت "فريدة" في حيرة:

– طيب فين الحقيقة في كل ده؟!

فرد عليها "آدم":

– مفيش حقيقة مطلقة يا فريدة، الحقيقة دي الناس هي اللي بتخلقها وبتطلق عليها حقايق، بس محدش عارف الحقيقة فين؟ لكن التلات حقايق اللي موجودين ومفيش عليهم خلاف وبردو ملهومش تفسير بتفكيرنا المحدود هما: الحياة، والموت، والخالق.

فأخذت "فريدة" رشفةً من "الكاكاو" وأسندت ظهرها معبرةً عن استمتاعها بحكايات "آدم" تاركةً فضولها جانبًا، وقد اكتشفت أن الأشخاص المحترمين الذين يملؤهم اللطف ليسوا مملين كما كانت تعتقد، رغم

معاشرتها الطويلة "لآدم" لكنها اكشفت أن لديه جانب مسلٍ ومفيد، فقالت "فريدة" في ابتسامةٍ هادئةٍ:

– احكي لي بقى عن العالم الموازي؟!

ارتشف "آدم" رشفةً من "الكاكاو" الساخن الذي أصبح باردًا، وعلى ضوء الشموع لا يوجد صوت سوى أنفاس "فريدة"، ولهاث "سولي"، وصوته وهو يشرح بثقةٍ عمياء كأنه محاضرٌ في أكبر الجامعات:

– "أينشتاين" كان في مرة قال إن العالم عامل زي الكتاب فيه صفحات كتير، وكل صفحة عبارة عن كون مستقل بذاته، بس خليني أقول لك أمثلة عشان أسهلها عليكِ.

فابتسمت "فريدة" حتى ظهرت نواجذها ونظرت له ممتنةً وقالت:

– آه والنبي عشان مليش في المصطلحات المكلكعة دي، أنا بحب الحواديت.

صمت "آدم" قليلًا وهو لا يصدق نفسه أنه أمام "فريدة" التي تبتسم له هو فقط؛ تلك الأمنية التي تمناها وقد تحققت بالفعل، وهاهي أمامه ذاك الوجه الملائكي، الذي يزيد من ضوء الشمعة نورًا وبريق وجهها الذي كاد يضيء انطفاء روحه التي طال انطفاؤها، والذي يحيي قلبه الذي اعتاد على موته ثم أردف قائلًا بصوتٍ مريح:

– قبل ما أحكي لك لازم تعرفي إن فيه دراسات قالت إن إحنا عايشين في عوالم موازية، وكل عالم عايش فيه نسخة مننا طبق الأصل.

بمعنى إنك ممكن تبقي في عالم متجوزة فيه ومخلفة، وفي عالم تاني ممكن تكوني بتحضري الدكتوراه مثلًا، في عالم آخر ممكن تبقي حزينة أو فقيرة، وفي عالم تبقي مبسوطة أو غنية. وده اللي بيبرر إنه ليه فجأة بنحس بخنقة، أو بفرحة، أو بإحباط؛ لأن نسختنا اللي في العالم الموازي بيكون لها تأثير علينا وعلى نفسيتنا.

– الحمدلله على نعمة الجهل.

قالتها "فريدة" بسخريةٍ؛ فالجهلاء أحيانًا في راحة أما أصحاب العقول فلا يعرفون الراحة أبدًا، ثم أكمل "آدم":

– الأدميرال "ريتشارد بيرد" عميد بحري في أمريكا وطيار ومستكشف، لما ماتت بنته لقت مذكراته كاتب فيها إنه في 1947 كان في رحلة طيران استكشافية فوق منطقة القطب الشمالي، بعدها دخل في فتحة وحس نفسه إنه بيطير تحت سطح الأرض وفجأة لقى ناس، ومدن، وحضارة مختلفة تمامًا واتكلم مع بشر وكان مش عارف هو فين. واتقال له إنه في عالم آخر وبعد كده رجع من نفس الفتحة واكتشف إنه اتأخر جدًا في الرحلة دي، ويقال إن الناس قالت له إن الرحلة دي المفروض متاخدش وقت وإنها خدت منه 17 ساعة أو أكتر مع إنه محسش إنه خد كل الوقت ده! الراجل كان مرعوب وراح يتكلم مع حد من كبار القادة بتوعه، فقال له إنه ميقولش حاجة زي دي لأن ده سر خطير ودي مسائل تخص الأمن القومي في أمريكا.

فانتابها الذعر ثم قالت:

– مش يمكن الراجل بيفتي؟!

فقال لها:

– ما هو في آخر أيامه طلع في التلفزيون وكان هيحكي بس قطعوا البث، وبعد ما الموضوع اتعرف راحت ناس حبت تستكشف الفتحة دي وملاقوش لها أثر!

فابتلعت "فريدة" ريقها واتسعت عيناها، ثم أردف "آدم":

– ولو حتى الراجل ده بيفتي فيه قصص بتحصل حوالينا مش مفهومة، يعني مثلًا الراجل اللي اتقبض عليه في اليابان في 2003 كان معاه جواز سفر لبلد وهمية اسمها "Taured"، وقالهم إنه لقى نفسه في عالم مختلف وإن البلد دي ما بين فرنسا وأسبانيا وبعدها الشرطة حققت معاه واكتشفت إن مفيش بلد بالاسم ده، بعد كده الراجل اختفى وقلبوا عليه الدنيا وملقوهوش!

ثم وضعت "فريدة" كوب الكاكاو بجانبها، ثم عدلت شعرها متوترةً:

– يا آدم الكلام ده مش منطقي وميدخلش النافوخ، أنا بقول عليك راجل مثقف!

فضحك "آدم" قائلًا:

– يا فريدة فيه حاجات بتحصل في الدنيا دي خارج نطاق المنطق العقلي، ولو كل حاجة بالعقل مكوناش آمنا بربنا، وبالرسل، والجن، والملايكة؛ لأن الإيمان بالقلب مش بالعقل! وكل اللي بقوله لك ده استكشافات من علماء كبار وتجارب، كل دي قصص حقيقية حصلت مش فارقة بقى لو صدقنا أو مصدقناش، بس منقدرش ننكر إن فيه فيزيائيين

فاهمين أكتر مننا عملوا أبحاث ودراسات وأثبتوا إن فيه حاجات ملهاش أي تفسير منطقي! ده غير الناس اللي شافت وصادفت حاجات غريبة.. كل دول مجانين؟! ولا تفتكري إن دي مؤامرة؟!

فظهر على "فريدة" الخوف وعدم الاقتناع، ولكنها مستمتعة بقصص "آدم" وطريقة سرده الشيقة، فقال:

– طيب فاكرة نظرية "تأثير مانديلا" اللي ظهرت وانتشرت في 2010؟

فأومأت برأسها إيماءة بإحراجٍ تدل على جهلها بذلك، ثم أكمل:

– طيب الراجل ده معظم الناس أو يمكن كلهم افتكروا إنه مات في التسعينات، وهو أصلًا مات في 2013! لكن في 2009 اكتشفوا إنه لسه مماتش والموضوع ده كان تريند، والناس في العالم كانت هتتجنن وفيه ناس قالت إنهم شافوا جنازته قدام عينيهم!

فاقتضبت "فريدة" واتسع ثغرها ورمقته بنظرةٍ تدل على عدم فهمها كلامه، وكأنها في عالم آخر!

ثم قال:

– الحوار ده مالوش تفسير، لكن اتقال إننا ممكن نلاقي نفسنا اتنقلنا من عالم لعالم فجأة، حتى أحلامنا اللي بنحلم بها دي ممكن نكون إحنا في عالم تاني، وعشان كده بيبقى فيها علامات وإشارات ورسايل فيها.

فقالت "فريدة":

– أنا مش فاكرة بصراحة الموضوع ده، طيب هو مين "مانديلا" وعمل إيه؟ ده عميد بردو؟!

فحدجها "آدم" بنظرةٍ تعبر عن شفقته عليها بسبب جهلها بأشياءٍ في غاية الأهمية وتكاد تكون أساسية، لكنه في نفس الوقت كان يحسدها على فراغ عقلها الذي يحميها من الجنون ويخفف من أحمالها وهمومها، فإنهما متشابهان قليلًا هو أيضًا لديه فراغ عميق.. لكن هذا الفراغ يحتل قلبه وروحه!

ثم اقترب منها قليلًا ولم يُشعرها بأنها جاهلة، ولكنه احتوى ذلك وأكمل كلامه في هدوءٍ:

– طيب أنا هقول لك كام مثال كده في حياتنا: "جورج سيدهم" ناس كتير قالوا إنه مات، وبردو ناس شافوه ميت قدامهم، لكن أنا شخصيًا اكتشفت إنه كان عايش طول الفترة دي.

و"لافاش كيري" لو فاكرة وإحنا صغيرين كان فيه حلق في مناخيرها، دلوقتي هي من غير حلق!

ثم قالت "فريدة" في ثِقة وهي تُشعره بالحماقة:

– يا عم ممكن يكونوا غيروا الصورة يعني عادي!

فقال "آدم":

– متعانديش وخلاص يا فريدة، أنا مبقولكيش تقتنعي أو لأ؛ لأن تصديقنا أو تكذيبنا مش هيغير حاجة، أنا بحكي لك حاجات حصلت ودراسات اتعملت واللي عملوها أصلًا مش قادرين يمسكوا دليل مادي! بس مننكرش إن فيه حاجات غريبة بتحصل حوالينا، واتفرجي على أفلام وثائقية بتأكد الكلام ده؛ إحنا بس مش عايزين نصدق لأننا بنخاف.. وعايزين دايمًا نبقى

عارفين وفاهمين كل حاجة! وعلى فكرة فيه حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام يمكن يكون ضعيف بس بيقول: "الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن. قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى".

ثم بدا على "فريدة" الاقتناع قليلًا، ثم قالت:

– يعني إحنا ممكن نكون في عالم موازي دلوقتي وأي إحساس بيحصل لنا زي إحساس الخوف، أو الحزن، أو الفرحة ده ممكن يخلي نسختنا اللي في العالم التاني تتأثر؟ وممكن كمان أكون مثلًا غنية في عالم وفقيرة في عالم تاني.. صح؟!

ثم أومأ "آدم" برأسه موافقًا وزفر زفرةً تعبر عن نفاذ صبره، ثم قال:

– زي ما قلت لك الإنسان عايز يسيطر على كل حاجة وعايز يفهم كل شيء، لكن ربنا ساب في الدنيا دي حاجات خارج نطاق قدراتنا عشان منتغرش ونفضل مؤمنين بقدرة ربنا سبحانه، فنبقى عارفين إن إحنا على قدر قوتنا وذكائنا بردو هنفضل ضعاف وعاجزين عن معرفة كل حاجة حوالينا.

وفجأة سمع "آدم" صوت شخص ينادي عليه في غضبٍ وبصوتٍ جهوري:

– آداااااام.

ثم يضحك ضحكة عالية ومخيفة؛ فقام "آدم" في ذعرٍ ووقع منه كوب الكاكاو ثم أطفأ الشمعة وجثا على ركبتيه وتلاحقت أنفاسه قائلًا في ذعرٍ:

– إنزلي يا فريدة استخبي.. استخبي.

فتلاحقت أنفاسها هي الأخرى وهي بجانبه قائلةً هامسةً له:

– فيه إيه يا "آدم"؟!

– هششش.. متعمليش صوت.

ثم دلف "آدم" ببطءٍ إلى النافذة ويداه ترتعدان، ثم ابتلع ريقه في خوفٍ ودقات قلبه تكاد تصم أذنيه من علوها، فأمسك بالحائط ثم رفع بصره قليلًا واتسعت بؤرة عينيه وهو ينظر إلى الخارج من زجاج النافذة، ثم رأى عدوه الذي قد دمر حياته ونهش روحه وجعله لا يشعر بوجوده، بل جعله يشعر أنه كالميت في هذه الحياة ولا يستحق أن يعيش مثل البشر، وهو لا يدري لماذا؟ لكن السبب ليس مهمًا؛ لأن الأهم ما صار إليه! فرآه "آدم" بطوله المهيب وهو يمسك بعصا "البيسبول" ويمشي ذهابًا وإيابًا كأنه ينتظره ليقتله، وفي كل نداءٍ يرتعد "آدم" وتتجمد فرائصه وينتفض؛ فيشعر أن روحه تنسحب منه رويدًا رويدًا، وفي بعض الأحيان كان يقول لنفسه ماذا لو ذهب إليه واستسلم ليقتله؟ ألن يكون هذا أرحم من أن يموت كل يومٍ وكل لحظة؟!

أشعلت "فريدة" الشمعة ووقفت وراء "آدم"، ثم نظرت له نظرة قلقٍ وشفقة بعينين ذابلتين مستسلمة، فالتفت "آدم" لها وهو جالس على الأرض مذعور، ثم اقتربت منه في هدوءٍ واحتوته بنظرتها فجلست على الأرض، ووضعت الشمعة جانبًا ثم أمسكت يديه في حنانٍ، وأخذته بين أضلعها تربّت على ظهره؛ فاستسلم لها وشعر أن عناقها هو مسكنه الذي يسكن به آلامه وأوجاعه، فأحيانًا نذهب إلى الأطباء ونبكي، ونسافر، ونلف العالم لنشعر بتحسن، لكن الدواء يمكنه أن يكون عناقًا، أو احتواءً، أو حتى بكلمة بسيطة

تشعرنا بأننا نستحق أن نعيش الحياة. وبالرغم من أن "فريدة" تبحث عن من يهون عليها، لكنها خُلقت لُتهوّن على الآخرين!

فاحتضنته بنظرةٍ حانية جعلته ينسى كل ما مر به، ثم قال لها في ضعفٍ وهوانٍ وقلة حيلة كأنه طفل صغير بريء والدموع تكتسح عينيه:

– جاسر يا فريدة.. جاسر عايز يقتلني.. أنا خايف أوي.. متسيبينيش.

– جاسر!! متخافش يا حبيبي.. أنا معاك.

قالتها وهي لا تدري إلى متى ستظل تُطمئن من حولها، بينما هي تحتاج لمن يطمئنها؟! تحتاج إلى من يشعرها بالأمان، لكنها دومًا تحتوي الآخرين ولا تجد من يحتويها، رغم استغنائها وشعورها بالاكتفاء لكن طاقتنا مثل الإناء الذي يمتلىء بالماء ونظن أنه سيكفينا، فنعطي هذا وذاك إلى أن لا تتبقى قطرة واحدة نروي بها ظمأنا، ثم نلوم من حولنا ولا نلوم أنفسنا. هل هذا قدرها؟ أم اختيارها؟! لقد اعتادت العطاء بل أصابها الإعياء!

إذن هل هي التي جنت على نفسها لاختيارها ذلك الدور؟ فينظر إليها الناس على أنها المغيث الذي يُستغاث به، فمن المؤكد أنها لا تحتاج العون! وإذ ربما أن ذلك قد كُتب عليها فتظل تنقذ من تجده أمامها إلى أن تموت!

نحن جميعًا في فيلم قصير، نؤدي أدوارًا لا نعلم عنها شيئًا، هناك من يختار دوره بعناية شديدة، وهناك من يخاف أن يأخذ دورًا، وهناك من يُفرض عليه الدور!

لا نعرف متى جئنا؟ ولماذا جئنا؟ ومتى ينتهي دورنا، لكننا نعلم جيدًا أن هناك مبدع، عظيم وأحكم الحاكمين قد خلقنا وأنتجنا وقد أخرج أدوارنا بدقة،

لكن الإله تركنا نرتجل؛ فهناك من يقوم بدوره، وهناك من يتمرد على دوره، وهناك من يشكو، ومن يتنازل، ومن يرضى، وهناك من يغيّردوره!

فلكل واحد منا طبيعة خاصة تناسب الدور الذي وجد نفسه بداخله، له الحرية في أن يفكر ويفعل ما يشاء، لكنه لن يستطيع أن يقوم بتغيير طباعه تمامًا، فيمكننا أن نخلق من أدوارنا الخير أو الشر، ولكن في حدود إمكانياتنا وطاقتنا وشخصياتنا المتنوعة التي لا يمكنها أن تتحول مئة بالمئة!

يرى "آدم" من منظوره أن وظيفة كلٍ منا هي البحث عن دورنا المناسب الذي خُلقنا لأجله، ليس لأجل سماع التصفيق والهتاف من الآخرين، بل لأجل إشباع رغباتنا ولكن.. هل من السهل عليه فعل ذلك؟!

عاشت "فريدة" تحاول إنقاذ "آدم"، وهو عاش يستعين "بفريدة" يحاولان تغيير أدوارهما ولكن دون جدوى، فهل اعتادا على ذلك؟ أم هما سعداء بذلك؟! وهل يستطيعان أن يتحكما في تلك الأدوار؟! أم هناك عالم آخر يتحكم في أدوارهما وفي مشاعرهما أيضًا؟

فعلى قدر ضعف الإنسان وعجزه لكن لديه من القدرات ما تجعله يقوم بالسيطرة على نفسه ولو بقدرٍ بسيط، لكننا في الأغلب نحب أن نعيش ضحايا؛ لأنه أسهل الأدوار.

***

لقد خلت المدرسة من الطلاب والمدرسين، بينما "آدم" منتظرًا والدته لتصطحبه من المدرسة، يجلس "آدم" بينما كان الجو شديد البرودة، ويتساقط عليه المطر، وقد تجمدت أنامله ويشعر بشللٍ في أطرافه من السقيع. فاقتربت مديرة المدرسة "منى" والدموع في عينيها لا تستطيع كيف تخبره، تنظر له في شفقةٍ وهو يجلس على كرسي يرتعد جسده من البرودة وترتطم أسنانه ببعضها، فنادت عليه وأشارت له ليدخل مكتبها؛ فقام "آدم" ومعه حقيبة المدرسة ليدخل المكتب مبللًا بماء المطر، فيحتمي قليلًا من ذلك الجو الذي يشل حركته.

جلس "آدم" أمامها وقد شعر بالدفء قليلًا؛ فأحيانًا الأشخاص الذين نرتاح معهم يشعروننا بالدفء أيضًا، بينما هي جالسة تنظر له وتحبس دموعها، فنظر لها نظراتٍ بعينيه الممتلئة بالبراءة، ثم شعر بالخوف قليلًا فكلما كان السن صغيرًا، كلما كان إحساسنا صادقًا؛ لأن النوايا لا زالت صافية والقلوب لا زالت نقية بيضاء، حتى نكبر فيشوبنا الخبث، والنفاق، والحقد ونقابل من يلقي علينا مخلفاته النفسية؛ فيصبح للقلب فجوة مظلمة وتتسع شيئًا فشيئًا ثم يشوبه القذى إلى أن نجد نوايانا قد تعكر صفوها، وإحساسنا الصادق قد أوشك على أن ينعدم؛ فنصير مسوخًا وينمو بداخلنا شيطاننا الذي يستعمر الجزء الملائكي لدينا؛ فكلما نكبر وننضج قليلًا كلما كبر الشيطان الذي بداخلنا، ليظهر إنسانًا بداخله معركة دامية بين شيطانه وبين فطرته الملائكية.

قامت "منى" التي انتصرت فطرتها النقية إلى "آدم" لُتخرج ما في جَعبتها وهي تحاول كبح دموعها قائلةً:

– حبيبي آدم.. ماما مش جاية تاخدك النهارده.

فنظر لها بتعجبٍ بعينيه وقال في براءةٍ:

– يعني بابا اللي هيجي ياخدني؟!

فلم تتمالك نفسها وذرفت دموعها، ثم أومأت برأسها علامة تدل على الرفض؛ فقالت بصوتٍ متهدج:

– ولا بابا يا حبيبي.

فصمت "آدم" وقد انتابه الذعر وارتعد جسده، لكنه ارتعد من الخوف هذه المرة ولم يجد كلامًا يقوله؛ فحاولت كبح جماحها مرة أخرى واستعادت رباطة جأشها واقتربت منه لتشعره بالأمان، ثم قالت:

– بص يا حبيبي.. بابا وماما عشان ربنا بيحبهم.. فأخدهم عنده.. أنا آسفة.

فامتلأت عيون "آدم" بالدموع وبدت عليه الصدمة التي تأتي عندما نكون غير مصدقين ما يُقال لنا، ونتمنى أن ما طرأ على أسماعنا يكون كابوسًا فقط ليس أكثر؛ فنزلت من عينيه دموعه كالمطر ثم انتحب وقام صارخًا معترضًا على قدر ربه! فألقى الحقيبة وذهب ليلقي كل شيء أمامه، ظل يبكي ويجري في كل مكان و"منى" تحاول أن تمسكه لتهدىء من روعه وهي تبكي هي الأخرى، ولم يكن مرادها أن تبلغه بذلك الخبر ولكنها اضطرت؛ لأنه لم يكن لديها خيار آخر، فظل يصرخ ويقول:

– لييييه؟؟!!! أنا عايز بابا وماما مليش دعوة!!

قد احمر وجهه كاحمرار الغسق وبدا عليه التيه؛ فتركته المديرة يلقي بكل شيء أمامه وينفّس عما بداخله إلى أن أمسكته وهي تشعر برجفته التي اجتاحت أوصاله وجوارحه، فضمته بين ذراعيها وكانت عيناها قد احمر لونها فصار كالدماء، ولم تتمالك نفسها فبكت مع "آدم" وهو يشهق في صدرها ويعلو صوته بالبكاء والنحيب، كأنه هو الذي قد مات وليس والداه؛ فهو لا يصدق أنه لم يودعهما قبل رحيلهما. فيا ليتنا نعلم متى يحين الوقت لنهيء أنفسنا ولا نتفاجأ هكذا "كآدم" المسكين! فهو لم يودع أبويه.. بل ودع جزءًا من روحه.

***

قام "جاسر" باصطحاب "فريدة" إلى مطعم فخم وأنيق من اختياره، بينما هي استسلمت له تمامًا وتركت له الدفة. كان يرتدي قيمصًا يُظهر صدره العاري ومشمرًا ساعديه، بينما هي كانت كأميرة من أميرات ديزني، ترتدي فستانًا قصيرًا لونه أسود يُظهر مفاتنها، بينما كان شعرها منسدلًا على كتفيها، وشفتاها اللتان كانتا كالفراولة حيث جعلت "جاسر" يسيل لعابه ليتذوقها، لكنه كان يعرف جيدًا كيف يكبح جماحه ويُظهر عدم الاهتمام؛ حتى يحافظ على سيطرته، بينما كان بداخله صراع بين إنسانيته ووحشيته، كان متعطشًا لالتهام شفتيها القرمزتين. لكنها كانت متعطشة لاهتمامه، ذلك الصراع الأبدي الذي يكون بين الشهوة والعاطفة!

كان في هذا اليوم رومانسيًا إلى أعلى درجة، ويهتم بتفاصيلها لدرجة مخيفة، كان معجبًا بعفويتها التي تزيد من أنوثتها وبابتسامتها التي تملأ الأجواء بهجةً، كان يمتدح جمالها وأناقتها، وكان منصتًا جيدًا لها قام بإظهار جانب الكرم لديه؛ فنحن لدينا جوانب متنوعة نخبئها معنا، ثم نُخرج منها ما يناسب الموقف كالشخصية الرئيسية في الفيلم، لا تعرف هل هو الشخص الطيب أو الشرير؟ لكنه في النهاية يؤدي دوره، لكن الفارق بين الفيلم والحقيقة أن الأشخاص في الفيلم تكون صادقة، ولكن الأشخاص في الحقيقة تكون مزيفة وكاذبة! كان يُظهر جانب الغموض والقيادة لكنه يمزجه بالاحتواء؛ ليجعلها تشعر أن رأيها في غاية الأهمية ولكن في النهاية رأيه هو الأهم، وذلك لمصلحتها بالطبع!

"جاسر" شخص متسلط، يحب السيطرة والتحكم، ويعرف أن هذا يجذب النساء، لكنه كان يغلف هذا الداء بشيءٍ من الاهتمام المؤقت حتى ينال وطره.

"فريدة" كانت تتصرف بتلقائية؛ فالأنثى مهما ظهرت قوية فبداخلها طفلة لا تنضج أبدًا، لعل هذا السبب هو ما يجعل أعمار النساء أطول من الرجال؛ فالرجل يحمل همومًا أكبر من سنه، بينما المرأة تحمل همومًا بسيطة وتافهة لا تليق بعمرها كقولها: أنا جعانة أوي ومش عارفة آكل إيه؟! بجد دي أكتر حاجة بتحيرني! فيضحك "جاسر" لبراءتها ثم يختار لها ما يحبه كأنه والدها، ثم يتبادلان الكلام في أمورٍ شتى.

تتعلق "فريدة" برجولته، وقوته، وباهتمامه، وإمساكه بزمام الأمور وبزمامها أيضًا، لكنها لا تنكر ما يصيبها من قلق وتوتر؛ لماذا حدسها يجعل أنفاسها تتلاحق وضربات قلبها تزداد؟! هل هذا من الحب؟! أم هذه علامات إنذار لتوخي الحذر ونسمع لقلبنا وإحساسنا قليلًا؟! يا ليت قلوبنا وعقولنا تتكلم معنا بصوتٍ أعلى؛ لننصت لها ونفهم ما يدور حولنا! ولكن مهما حدث غرورنا سيجعلنا نصم آذاننا؛ فهي تستمتع بوقتها، إذن ستخرس صوت قلبها وستكذّب إحساسها، ثم تحاول إيقاف عقلها الذي يلح عليها بسيناريوهات سوداوية، حتى تطلق لنفسها العنان وتسرح في "جاسر" الذي يتقن دوره جيدًا في أن يجعلها تنسى ما حولها، وتنسى نفسها أيضًا.

نحتار دائمًا في اتباع العقل، أو القلب، أو كليهما وكأنهما ضدان، نريد دومًا إسكات صوت القلب ونمشي بعقولنا، فيجعلنا لا نشعر ويُدخلنا في

دوامة اكتئابٍ فنصير وحدنا ونخاف من كل شيءٍ، نعتقد أن ذلك من الحكمة، بينما هو غباء ليس أكثر! فنحن خُلقنا خليطًا من العقل والقلب، وهذا لا يعني أن نغلق عقولنا وننجرف وراء قلوبنا، وشهواتنا، ورغباتنا، فبدون التفكير سنعيش في صدماتٍ متتالية دون تقديرٍ لقيمتها، وبدون الحب سنعيش حياة مملة بلا طعم؛ فالحل هو أن نجعل العقل يسمع للقلب ولو قليلًا.

لكن العقل هو الذي يتولى القيادة، والشهرة، والسلطة مثل "جاسر"، أما القلب هو الذي يتم وصمه بالضعف، وقلة الحيلة، والطيش مثل "فريدة" أحيانًا، ولكن لماذا لا تتولى أرواحنا مفتاح القيادة؟!

فالعلاقة بين العقل والقلب مثل علاقة المدير والموظف، حيث أن المدير يصدر أوامره لكن من يقوم بكل شيء وبدونه لن يكون هناك مدير؟! فالأساس هو الموظف قلب المكان؛ فالقلب هو الذي يحب ويعطي؛ ولذلك البقاء دومًا للمُحِب أكثر من المفكر!

القلب هو الفاعل، هو السبب في إيماننا بالحياة، والحياة هي كل شيءٍ فبدون القلب أين الحياة؟! فلماذا نريد التخلي عنه بينما هو دومًا يريد مصلحتنا ويهمه أن يجعلنا سعداء؟! فالقلب هو الذي جعل منا ذلك الشخص القوي، اللين، الحكيم، الذكي بل أحيانًا عندما نستسلم لعقلنا ومنطقنا نصنع قرارات غبية!

رغم أن "فريدة" مفعمة بالمشاعر وبداخلها عاطفة جياشة، لكنها لا تحاول إظهار ذلك؛ لأنها تظن أن إظهاره يُعتبر غباءً وضعفًا، لكن "فريدة" تحتاج أن تتقبل كيانها الممزوج بهذا المزيج الجميل كجمال روحها، وكأنه

علاقة بين رجل عقلاني وأنثى عاطفية حساسة كالسيارة التي نقودها، لا نستطيع أن نستغني عن المكابح أو دواسة البنزين؛ فالذكاء العاطفي أقوى تاثيرًا وإذا لم نحتوِ عقولنا بقلوبنا وحاولنا فصلهما، ولم نحتفظ نحن بمفتاحنا في أيدينا؛ فسنتحسر كثيرًا عندما تجبرنا الظروف على أشياءٍ لن نحب نتائجها ولن يُلام غيرنا.

كانت سهرة ساحرة بالنسبة "لفريدة"، بل كانت سهرة اعتيادية بالنسبة "لجاسر"، لكنه جعلها تشعر بمكانتها المقدسة التي لن يتشارك معها أي شخصٍ آخر في العالم، وبكل جرأة بينما هو على يقين أنها ستوافق قال لها:

– فريدة أنا بحبك، وعايزك في حياتي.

صمتت وتجهم وجهها كأنه صدمها بمراده، لكن عينيها ابتسمت وقفز قلبها من مكانه وطار عقلها في السُّحب، لكن بعد أن طال صمتها الذي لم يعنِ علامة الرضا، نجحت في أن تسيطر على انفعالاتها، وكان ردها غير متوقع فنظرت له نظرة ثقةٍ وكبرياءٍ قائلةً باقتضابٍ:

– هفكر.

مرت "مي" على "آدم" بسيارتها، فركب معها في فضولٍ خفي؛ فهو لا يعرف إذا كانت معجبة به، أم هي ترى نفسها قبيحة الشكل؛ فتريد أن تثبت لنفسها أنها جميلة مثل "فريدة"، أو مثل أي فتاة أخرى، أم هي بطبعها ودودة أو منحرفة ولكنها تسلتطف "آدم" ليس أكثر!

قابلته بابتسامةٍ عريضةٍ، ثم احتضنته معبرةً عن اشتياقها له، لكن "آدم" احمر وجهه خجلًا؛ فهو كأي رجلٍ لديه نار متقدة بداخله ويستميت

لإفراغ شهوته التي لا تقل ألمًا عن دورة النساء الشهرية؛ فيشعر بعذابٍ داخلي وصراع بين مبادئه وبين رغبته المكبوتة التي لا يزال يكبحها، فمن مثل "آدم" لا يستلذ بتفريغ شهوته في إناءٍ، أو في التهام ثغر حورية من الحوريات، أو في مداعبة ثديها؛ لأن كل ذلك يجب أن يكون مرتبطًا بالمشاعر والعاطفة، فتلك الأفعال ليس لها لذة أو طعم بدون ارتباطها بالحب! فما أهمية العناق أو القبلات مع شخصٍ لا يكن له أي أحاسيس مرهفة؟! فحتى الحيوان لديه مشاعر صادقة فكيف نستغل روحًا طاهرة في إشباع رغباتنا بمشاعر كاذبة، أو بدون أدنى شعور كأنها جمادٌ؟!

فنحن أصبحنا في مجتمع شهواني، لا ننظر لقلب المرأة أو روحها؛ فهي دومًا تريد قلب الرجل، ولكن معظم الرجال يريدون جسدها فقط، لا يوجد من يفكر في أن صدر المرأة عضوٌ من أعضاء الجسد؛ لترضع به طفلها، فمتى نحترم المرأة وننظر لها كإنسانٍ؟! فالجري وراء شهواتنا أصبح هو الهدف الرئيسي

نريد الزواج لننام مع جسدها، ولا نفكر في كيانها، في عقلها، في قلبها، في شخصيتها أو روحها. نتعامل مع المرأة كسلعةٍ أو لعبة نلعب بها ثم نلقيها عندما تظهر بعض التجاعيد في جسدها، أو وجهها وكأنه تم إتلافها! كأنها "شيءٌ" له تاريخ صلاحية! لكن أين ذلك من الدين والأخلاق، أن نهين المرأة ونعاملها بهذه الدونية؟! ونجد من يعلّق على صورة فتاة عارية لا يعرفها فيقول لها "أحبك".. "مستعد أن أكون خادمًا لك" ما هذه الحقارة؟! من هذا الذي يتكلم عن الحب؟! إنه يريد أن يفرغ شهواته فقط ليس أكثر؛ فهو يهين

نفسه ويهينها.. يهين خلق الله! فيا ليته يفكر بقلبه مثل الرجال الحقيقيين مثل "آدم"، فطوبى لمن يحب البشر ويستخدم الأشياء، وليس العكس!

لكن "آدم" ليس ملاكًا؛ فهو بشرٌ له ما له وعليه ما عليه، وبالتأكيد لديه جانب متناقض حسب طبيعته وظروفه، وبسبب انطوائيته ووحدته ليس لديه خبرة كافية "كجاسر" أو "كريم" صديقه؛ فهو ما يُطلق عليه "الفتى الخام" الرجل البِكر الذي لديه رغبة شديدة في إخراج شهوته بملامسة أنثى، ولديه فضول لمعرفة هذا الإحساس الذي يشعر به الرجال بعد أول قبلة، أو أول عناق، أو حتى بعد أول لمسة على جسدها الذي يزداد حرارة كلما اقترب منه، لكنه دومًا يمسك شهوته كأنه يمسك جمرة من النار؛ احترامًا للمرأة ولطبيعته الخجولة الخلوقة التي يجملها الحياء.

لكن "مي" كانت تغريه أحيانًا، وهو لا ينكر أنها تعجبه ويُعجب بفتياتٍ أخريات، لكن قلبه يحب واحدة فقط "فريدة" بدون شكٍ، وشتان بين الإعجاب والحب! فقليل الخبرة يُعجب بأي فتاةٍ تمشي على الأرض، أما ذوو الخبرة فيستغلون أي فتاةٍ لكنهم يحبون أنفسهم فقط!

"مي"، تلك الفتاة اللعوب التي تبرز مفاتنها لتعوض قبح وجهها، فهذا هو منطقها العجيب؛ فهي لا ترى نفسها جميلة بل قبيحة، لكن جسدها مموج كموج البحر، ويغري أي رجل عندما ينظر إلى نهديها البيضاوين؛ فتزيد من إقبال الرجال عليها عندما تقوم بإظهار جزءٍ منه فتشعر بأنوثتها، وتستمد قيمتها من هؤلاء الذكوريين لتقنع نفسها بأنها مرغوبة! لكن "آدم" لا يتفحص جسدها مثل بقية الرجال، بل كان يرى وجهها جميلًا، لعل عينيه

الجميلتين ترى كل شيءٍ جميلٌ، أو لعله يرى روحها فينعكس على جمال وجهها، لم يعرف أبدًا لماذا ترى نفسها بهذه البشاعة؟! وقد سألها قبل ذلك ليفهم منها لكنها ظنت أنه يجاملها؛ فهي متيقنة بأنها ليست جميلة على الإطلاق، ربما لأنها دومًا تقارن بينها وبين الآخرين فتشعر بالنقص؛ حيث أن لديها من كيد النساء أطنان، فهذا يجعلها ترى جمالهن ولا ترى جمالها. لكن بالطبع "آدم" لا يرى جمالها عندما تكون في مقارنة مع "فريدة"؛ ففي تلك الحالة المقارنة ليست منصفة على الإطلاق؛ فعندما تحب شخصًا فعيناك ترى جماله بشكلٍ برّاق، يصعب على الشخص أن يرى ذلك البريق الذي تحمله عيناك تجاهه!

قامت "مي" بإيقاف سيارتها في مكانٍ من الأماكن النائية المظلمة التي تعرفها جيدًا، ودار بينها وبين "آدم" حوارًا شيقًا قد بادر به "آدم" متسائلًا:

– هو أنتم ليه بتحبوا الباد بويز والولاد التوكسيك؟!

فنظرت له "مي" ضاحكةً ومتعجبةً من سؤاله، ثم قالت:

– لا وأنت الصادق هما بيبقوا زي الفل في الأول، بعدها بيحصل بلوت تويست كده كأنهم بيتلبسوا وهوب.. نكتشف إنهم طلعوا ولاد وسخة!

فيضحك "آدم"، ثم يسألها:

– طيب ليه أنتم مبتحبوش الجود بويز؟!

فتنظر له "مي" في مللٍ ثم يراها وهي تقوم بلف سيجارة حشيش، ثم تأخذ نفسًا طويلًا وتعطي السيجارة لآدم؛ فينتابه الذعر لكنه يأخذ منها السيجارة ليرضي فضوله ويقوم بتلك التجربة، وليظهر أنه ذو خبرة في تلك

الأشياء، لكن "مي" تعرف جيدًا أنه يحاول تغيير جلده؛ فترد عليه "مي" ضاحكةً:

– عشان الجود بويز مملين فشخ، يفضلوا يكلموك في كتب ويتفلسفوا. محترمين أوي كده وملزقين وشعرهم على جنب، مش ناس مدردحة كده. يعني أنا متخيلة لو اتجوزت واحد بالمنظر ده هلاقيه بيخاف من الضلمة!

فيسعل "آدم" سعالًا شديدًا بعد أن أخذ نفسًا من سيجارة الحشيش، فتأخذ منه السيجارة ثم تردف كلامها:

– شوفت بقى مبنحبكوش ليه! وبعدين هو البني آدم كده يا ابني يعني أنت لو شوفت بنت شمال.. مش هتحبها؟!

فيقطب جبينه متعجبًا ثم تقول بنبرةٍ ساخرة:

– متقلبليش وشك بقى وبتاع، كلنا بنحب الشمال، بس الفكرة إن مبادئنا مبستمحلناش إننا ناخد راحتنا، ده لو عندنا مبادىء. بس خلينا متفقين إن الشمال مغري.. ولا إيه؟!

قالتها في دلالٍ وهي تميل عليه وقد لامس نهديها ذراعه؛ فوقع نظره على شفتيها ثم تلاحقت أنفاسه وتصاعدت الدماء في رأسه، ثم أردفت بنبرةٍ شيطانية:

– أنت مش ملاك يا آدم، أنت راجل زي أي راجل بس الفرق بينك وبينهم هو إنهم معندهومش حدود توقفهم، لكن أنت أهلك ربوك عالعيب والحرام، بس كلنا بنغلط وهنغلط.

فقام متهتهًا وهو يظهر عليه البراءة، وقد بدأ يشعر شعورًا جديدًا عليه وممتعًا:

– هو.. هو أنا ممكن يعني آآ..

فابتسمت وحدقت بعينيها إلى شفتيه واقتربت أكثر حتى شعر بأنفاسها تجتاحه، ثم براحة يدها لامست عنقه ورمت السيجارة من نافذة السيارة، وقامت بيدها الأخرى بملامسة فخذه برقة قائلةً في غنجٍ هامسةً:

– مشكلتك يا آدم إنك مش في واثق في نفسك، وإنك مش سايب نفسك تجرب حاجات جديدة وتعرف ناس. مشكلتك إنك مصمم تقرب من اللي منفض لك وسايب اللي هيموت عليك يا مز أنت!

تجمد "آدم" وشعر أنه لا يستطيع التحكم في نفسه، فقد تدفق الدم في عروقه وزادت حرارة جسده وسرت رعشة في أطرافه؛ فاستسلم لها وبادرت بالتهام شفتيه! فغرق في ثغرها وأغمضا أعينهما وهما يعتصران شفتيهما، لكن خياله قد جعله يتصور أنه مع "فريدة"؛ فأمسكت "مي" بيده ليضعها على نهديها ثم بدأ يداعبها برفقٍ والتصق فمه بشفتيها كأنه يأكلها بنهمٍ؛ فشعر بالنشوة التي جعلته يشعر ببرودة أنامله وحرارة وجهه كأنه أخمد نار شهوته التي طالت واستمرت لأعوام.

عقدت "مي" ذراعيها حول رقبة "آدم"، وكانت تتنوع في قبلاتها له وبأسنانها تقضم شفتيه بشراسةٍ، ثم ترك لها نفسه تمامًا تفترسه ثم فتحت أزرار قميصه وتابعت مداعبتها له؛ فشعر أنه يحلم وقد استشعر لأول مرة أنه ذكر مرغوب به، فجعلها هي الأخرى تشعر أنها أنثى لا تقاوم؛ فأمسكها

من كتفيها ثم تحول لوحشٍ مسعور كأنه صار متمرسًا ونسي نفسه، ولم يستطع إخماد نار شهوته التي اعتادت الاشتعال؛ فداعب ثديها بأنيابه كما يشاهد في الأفلام، ثم لثم رقبتها وقضمها كي لا تنسى تلك الذكرى عندما ترى قضمة الحب هذه؛ فنحن لا ننسى الأشياء التي نربطها بالمشاعر، لكن "آدم" في هذه الليلة باع مشاعره في سبيل تجربة عرض مغري، وتمنى أن تكون "فريدة" هي التي يفعل معها ذلك رغم أن هذا ضد مبادئه، لكن ذلك الحرمان يولد الشبق! "فآدم" كان يتعطش لملامسة أي امرأة قبل أن يموت، و"مي" كانت تتعطش لجذب أي رجلٍ قبل أن تبور!

توقف "آدم" و"مي" ثم نظرا لبعضهما وابتسما كأنهما نالا مرادهما، واختلطت أنفاسهما وتصبب العرق من جبينهما، ثم اعتدلا في كرسيهما وظهر عليهما أنهما لا يصدقان ما حدث، فعدلا من ثيابهما وهيئتهما وقد أحس "آدم" بغصة في صدره؛ ليوقظه ضميره ويجلده على ضعفه، لكن "مي" أحست بسعادة عارمة فقالت:

– آدم، أنت بجد حنين أوي، وغير كل الرجالة اللي أنا عرفتها، أنت فعلًا محترم، مسكتني بحنية وكنت بتلمسني كأنك خايف توجعني، كل حاجة كنت بتعملها بحب! أنا أول مرة حد يحسسني إني بني آدمة!

حدجها "آدم" بنظرةٍ وقد بدا عليه أنه لا يفهم شيئًا، لكن بفطنته فهم أنها تكذب وظن أنها تعاشر الرجال وتتاجر بجسدها، بينما هو الرجل الوحيد الذي جعلها تشعر بأنوثتها وحافظ على كرامتها، ثم أردفت في ندمٍ:

– آسفة، أنا قرفانة من نفسي أوي، خليك نضيف زي ما أنت يا آدم وإوعي تتغير، اللي زيك ميستاهلناش!

ثم نظرت له في امتنانٍ قائلةً:

– على فكرة أنت مش باد بوي ولا جود بوي، أنت جنتل مان، واللي زيك خلاص قربوا ينقرضوا. اللي مهما غلطوا لسة عاملين حساب للمبادىء والأخلاق والدين، واللي مهما بعدوا لسه عاملين حساب للحب والصداقة والعشرة. أنت بس حابب حياتنا اللي شكلها بيلمع، بس صدقني دي مش حياة.. دي مسرحية سخيفة.

– بس أنا حاسس إني كده شخص متناقض!

قالها "آدم" وضميره يؤنبه ويعذبه، فأومأت "مي" برأسها لتنفي كلامه بابتسامةٍ قائلةً:

– أنت إنسان يا آدم.

فتبادلا نظراتٍ مشتركة تعبر عن شعورٍ بالذنب، فأحسا أنهما متشابهان في أن كلٍ منهما قضى من الآخر وطره ثم تساءل "آدم" محدثًا نفسه: "هل حقًا الطيور على أشكالها تقع؟! أم تقع على طيور لا تستحقها؟! لماذا نقع مع طائر لا يشبهنا في أحيان كثيرة؟! أسئلة محيرة تدور في ذهنه تنتهي بأن ينتابه الشك في ذاته.

لماذا تقع الفتيات في حب الرجل "الشمال"، ويقع الرجال في حب الفتاة "الشمال"؟! فيتبقى المحترمون والمحترمات لا يقعون في حب بعضهما البعض..

هل هذا لأن الممنوع دومًا مرغوب؟! فالشمال يرغب في من يشبهه. أما المحترم مثل "آدم" يرغب في أن يتماشى مع الزمن الذي كَثُر فيه ذلك! ولهذا الطيور على أشكالها، لا تقع لكن الطيور على نواياها تقع، على ما تستحقه تقع، فمن نوى شيئًا نال استحقاقه، لكننا لا نأبه بنوايانا، فنظن دومًا أننا نستحق الأفضل، وهذا لاعتقادنا بأننا ملائكة ترفرف في السماء، فننكر آدميتنا.

اتفق "آدم" و"مي" على أن يكون ما حدث سرًا بينهما، شعر "آدم" أنه خان "فريدة" رغم أنه لا تربطهما علاقة حب! بل هي التي تخونه مع "جاسر" في تلك الليلة؛ لأنها تعرف جيدًا حبه الصادق لها، وهو يعرف عدم رغبتها في شخصه، ولكنه كان مع "مي" يتخيل "فريدة" في كل عناقٍ وفي كل قبلة؛ فهو لم يرى "مي" أمامه، لكنه كان يرى من يذوب عشقًا فيها، ولولا خياله الجامح لتراجع عن فعلته المشينة.

وإذا علمت "مي" بذلك لبصقت على وجهه وقتلت صديقتها التي يلتف حولها الرجال دومًا حتى في تخيلاتهم، أما هي فيتجاهلونها وينعتونها "بالقبيحة"! لقد كذبت عندما أشارت "لآدم" أنها كانت تعرف رجالًا يحبونها ويطمعون في جمالها، لكن هي التي تطمع فيهم وتتسول المشاعر والاهتمام، بل وتغريهم أيضًا فتتحول كمدمنةٍ عندما يلمسها أحدهم؛ فهي تعرف كيف تصطادهم واحدًا تلو الآخر، حتى تشعر دومًا بأنها "فريدة"! إنها تتعطش لذلك الشعور الزائف الذي يوهمها بأن الرجال يبغونها هي، بل هم يبغون إنائها لإشباع احتياجاتهم الشهوانية.

***

حضر أولياء الأمور لمشاهدة أطفالهم على المسرح التابع للمدرسة؛ حيث أنهم سوف يؤدون عروضًا استعراضية متنوعة.

في الكواليس، يجلس الأطفال وأمامهم مدرس الموسيقى يذكرهم بأدوارهم بعد بروفات عديدة، ثم تركهم قليلًا ليقوموا بالتدريبات وحدهم إلى أن يأتي دورهم في الدخول على المسرح، انتهز "جاسر" فرصة السخرية من "آدم" وأخذ يضايقه كثيرًا؛ ليجعل منه أضحوكة أمام زملائه، ظهر على "آدم" الغيظ واحمر وجهه من الغضب لكنه شعر بقلة الحيلة والضعف والهوان، لكن "فريدة" دافعت عنه وأعطته قُبلةً حانية على إحدى وجنتيه وربّتت على كتفه بعد أن أوقعه "جاسر" على الأرض ليستعرض قوته؛ ازداد وجه "آدم" احمرارًا من الخجل، لكن "جاسر" نظر إلى "فريدة" في غيظٍ ثم ذهب ليعرقل "آدم" حتى يظهر أمامها بمظهر أضعف، فأوقفته "فريدة" ودفعته بعيدًا بالرغم من قصر حجمها وبنيته الطويلة لكن "فريدة" بداخلها جرأة لا توصف، وكأنها منذ صغرها تحدث نفسها قائلةً: "أنا مفيش حاجة أخسرها!"

ومنذ هذه اللحظة أسرت "فريدة" قلب "آدم" وتعلق بها أعوامًا مديدة، كانوا في المرحلة السابعة من عمرهم التي تتأثر بكل شيء حولهم، بينما بلغ العراك حدته بينهم جميعًا.

تدخل مدرس الموسيقى وأوقفهم بقبضةٍ من يده؛ ففي هذا العمر كانوا لا يتعدون ساقه ويرون أن عالمهم القزمي هو العالم الحقيقي، بينما عالم العشرينات والثلاثينات وما شابه فذلك العالم مليء بوحوشٍ ضارية لا يتخيلون أن يصبحوا يومًا مثلهم.

ومن بعيدٍ جاءت "مي" متأخرة عن ميعادها كعادتها، ثم قام المدرس بتوبيخها؛ فهي كانت تعاني من تنمر مدرسيها وزملائها حيث أنها قصيرة، بدينة بعض الشيء، وجهها ليس جميلًا وليس قبيحًا، لكنها ترى نفسها بالقبح الذي يراه من حولها، كانت دومًا تحاول أخذ الأشياء بطريقةٍ كوميدية حتى لا تنهار وتتظاهر بالقوة، ثم بدأت تسخر من شكلها، كانت دومًا تسأل نفسها: "لماذا خُلقت بهذا الشكل؟!".. "لماذا وُلدت فاشلة وقبيحة؟!" رغم أن الجمال نسبي ولديها معجبون لكنها لا تصدق كلامهم، وتأخذه على محمل المجاملة أو السخرية، وبالطبع كانت "فريدة" تأخذ دومًا دور المُصلح العام؛ حيث أنها تريد إصلاح الكون؛ فاقتربت من "مي" وقامت بمواساتها وأصبحت صديقتها المقربة.

كانت "فريدة" تتعامل معها معاملة خاصة وبثقةٍ زائدة، و"مي" كانت تعتاد ذلك؛ لأنها تشعر أن من حقها هذه المعاملة، فهي ترى نفسها ناقصة بعض الشيء ولكنها تنكر ذلك، بل هي لا تنكر أنها تكمن بعض الأحقاد لمن حولها بدون قصد، لديها شعور دفين أنها تستحق أن تكون أفضل منهم، وحاولت مرارًا أن تتخلص من تلك الضغائن لكن دون جدوى!

ثم بدأ دورهم لدخول المسرح وتأدية الاستعراضات، وبدأ مدرس الموسيقى بالانحناء أمام الجمهور وهو يسمع التصفيق الحاد، ثم دخل الأطفال لقيامهم بالغناء وقد اصطفوا كمجموعة كورال، وفي وسط الزحام قام "جاسر" بركل "آدم" من الخلف، فالتف بوجهه وقطّب جبينه فرأى ابتسامةً

مستفزةً على وجه "جاسر"، وكأنه يقول له: "أنا سوف أجعلك تشعر بالدونية طيلة عمرك أيها الضئيل"، فكان ينعته دومًا "بالقزم"!

ثم تقدمت "فريدة" بإطلالتها الساحرة وبدأت بالغناء، فلا يوجد أحد لم يمتدح جمال صوتها منذ صغرها حتى ريعان شبابها. نظرت "مي" إلى "فريدة" في حنقٍ وكأنها تقول: "لماذا "فريدة"؟!". بدأت "فريدة" تنظر في وجوه الحاضرين على والديها، لكن قد فُطر قلبها عندما لم تجد والدها أو والدتها كأنها يتيمة الأب والأم!

يشعر "جاسر" بالفوقية وينظر باستعلاءٍ ويغني بصوتٍ عالٍ، ويؤدي بيديه كأنه مغنٍ مشهور فهو لا يرى نفسه في الكورال، بل هو أكبر من ذلك! ثم رأى والديه وهما يصفقان له بحرارة وأصواتهما تعلو: "جاسر".. "جاسر"، بينما "آدم" يغني بلا روح وكأنه في عالم آخر؛ يشعر أنه غير موجود، يشعر أن صوته غير مسموع، يريد أن يبكي ولا يستطيع.

يشعر أنه إذا صرخ لن يسمعه أحد كأنه في أعماق البحار يعاني وحده، بينما الناس تحت الشمس يظنون أنه يسبح! يقف "آدم" على المسرح يغني وروحه تبكي وقلبه ينتحب، إذا بكى سينظرون له "كالطفل"، رغم أنه طفل حقًا فما ذنب الإنسان الذي اعتاد الإهانة من قِبَل زملائه المرضى وبالأخص "جاسر"؟! لا يوجد من يهتم لأمره سوى "فريدة"، كان يحتاج لصديقه "كريم" لكنه لا يحب أن يشارك في الحفلات المدرسية، ودومًا يشعر أنه مشغولٌ عنه.

لقد رأى "آدم" والديه جالسين على مقعدٍ بعيدٍ، ولكن يبدو عليهما عدم الاكتراث لأمره، كأنهما أتيا ليصطحباه فقط ليس أكثر أو ليؤديا واجبهما تجاهه!

"فريدة" هي التي تشعر به؛ لأنها ذاقت طعم التجاهل إلى أن نضجت، وظنت أن إظهار التجاهل شيء طبيعي، بل هو شيء في غاية الأهمية ويعبر عن الحب! لكن التجاهل إهانة أيضًا؛ ولأن الأرواح المنكسرة تشعر ببعضهما فكلاهما يغنيان بروحٍ ضائعة، يشعران بالوحدة بل ويعيشان الوحدة رغم الزحام حولهما؛ فيتحول حفل الغناء إلى رثاءٍ لأرواحهما المنطفئة التائهة، ثم ينتهي الحفل بتصفيقٍ حار لكن ما فائدة الهتاف إذا كان لا ينبع من المقربين؟!

انتهى الحفل ثم قابل "جاسر" والديه وهما يستعدان للرحيل، بينما هو يرى الفخر والفرحة على وجه والدته قائلةً:

– حبيبي كنت أحسن منهم كلهم، أنت أحسن واحد في الدنيا، كل الناس مكنتش شايفة غيرك يا حبيب ماما.

فيبتسم "جاسر" ويأخذ كلام والدته على محمل الجد؛ فالأم هي المصدر الموثوق به في الحياة، حيث أن الطفل يأخذ تلك المعلومات ثم يمتص عقله الإسفنجي ويسجلها فتتكون شخصيته، ينظر والده له قائلًا:

– شاطر يا حبيبي، يلا بقى عايزين نروح أنا تعبان.

فتدلف والدته إليه قائلةً في رجاءٍ:

– طيب ليه نروح؟! أنا كنت حابة يعني آآ...

فيقاطعها في حسمٍ بنبرةٍ تحكمية:

– لا أنا قلت نروح البيت يبقى نروح، أنا في الشغل من الصبح واحمدوا ربنا أوي إني جيت!

فينظر له "جاسر" في خوفٍ وحزنٍ قائلًا:

– شكرًا يا بابا، أنا كمان عايز أروح.

ثم تتبادل النظرات بين "جاسر" ووالدته، فتغمز له بعينها ليبتسم ويفهم أنها سوف تأخذه في نزهةٍ لتحتفل به.

تجلس "مي" في السيارة في الخلف وأمامها والدها يقود سيارته وبجانبه والدتها، ثم تسألهما في براءة:

– إيه رأيكم فيا النهارده؟

فترد والدتها بعفويةٍ:

– هو إحنا شوفناكِ يا بنتي خالص!

فيضحك والدها ساخرًا:

– كنتِ مدفوسة جوه وكان شكلك يضحك أوي يا حبيبتي.

ثم تضحك والدتها ثم تُظهر بعض الحقد قائلةً:

– مش كنتِ تغني زي فريدة؟! اشمعنى هي يعني؟! أحسن منك في إيه؟! عشان هي أحلى منك يعني؟! ولا عشان أحلى وأشطر؟! أنا عارفة حظي.. أصل بنتي مش نافعة!

فتصمت "مي" ولا تنبس ببنت شفة، ثم تنظر إلى النافذة والدموع في عينيها وتشعر بالإحباط الشديد، ثم يجري حوارًا بين والديها، فتقول الوالدة للوالد في غيظ:

– هو أبو جاسر ده رجل أعمال باين؟!

– وأنا إيش عرفني!

– لو كنت شاركته في المشروع بتاعه كان زمانك بقيت أحسن منه بس خلاص راحت علينا!

– قدر ربنا يا ستي.

– مترميش قراراتك الغلط على القدر والنبي!

– لو شايفاه أحسن مني روحي اتجوزيه.

– قدر ربنا يا أخويا.

– يا سلام!! طب وأنتِ مش شايفة مراته بتلمع إزاي؟! مش عاملة زيك!!

– طيب دي خلقتي شوف أنت بقى عملت إيه؟! الناس عمالة مستواها بيزيد وأنت مستواك عمال بيقل!

شعر والد "مي" بالضجر، ثم توقفت سيارته البسيطة فجأة، فنزل منها ليرى سبب ذلك العطل ودفع الباب وراءه في عنفٍ؛ فزفرت زوجته في ضيقٍ ونظرت إلى النافذة كأنها تندب حظها، فهي دومًا تقارن حياتها بحياة الآخرين، ثم رأت ابنتها في مرآة السيارة الجانبية والدموع في عينيها كأنه بدأ يتكون لديها مشاعر السخط من الحياة، وهي لا تزال على بوابة الدخول لم تقطع التذكرة بعد!

بينما كانت الأعين تتحملق على تألق "فريدة"، كانت تبحث عن والديها فهي ترى القبلات والاحتضان والدعم حولها من أولياء الأمور، لكنها تشعر باليُتم والوحدة، ثم تظهر دكتورة "إيناس" والدتها لتفاجئها قائلةً:

– حبيبتي.. سوري إني اتأخرت عليكِ كنت مشغولة أوي والله.

ابتسمت "فريدة" ابتسامة صفراء؛ فهي أرادت أن يحضر والداها وتتألم أيديهما من التصفيق كما فعل الغرباء! فقد وجدت الاهتمام ونظرات الانبهار من أشخاصٍ مجهولة، ولم ترَ سوى نظرات الفتور من أقرب الأقربين، فوجدت والدها في سيارته الفخمة ثم ركبا السيارة وتجاهلا الكلام عن حفل ابنتهما كأنها قد ركبت "أوبر"!

جلست "فريدة" وهي تعرف ماذا سيحدث بين والديها بعد دقيقة؛ نقاشات حادة ثم تجاهل تام، فدار حوار قصير بينهما بحدة وكأن "فريدة" من ضمن الهموم الثقيلة المحملة على قلبهما، تجد نفسها في السيارة كغرضٍ من أغراض "السوبر ماركت"، ولم تكن "فريدة" فقط هي الهم، بل حياتهما سويًا كانت تشكل همًا متجسدًا في صورة زوج وزوجة تعيسان!

بادرت "إيناس" بسؤالٍ لزوجها:

– مين هيجيب فريدة من المدرسة بكرة؟!

– معرفش.. جيبيها أنتِ أنا مش فاضيلكم.

– وهي بنتي لوحدي يعني ولا إيه مش فاهمة! وبعدين أنا كمان مش فاضية!

– يعني أموت نفسي عشان ترتاحي.

– أنت أصلًا وجودك زي قلتك، ممكن تقول لي أنت ضيفت إيه لحياتي من ساعة ما اتنيلت اتجوزتك؟!

– آه! شيفت الخناق والنكد بدأ أهو أنا بشمه، يا ستي لو شايفة إني مبعملش حاجة يبقى كل واحد فينا من طريق.

– هو أنت مبتعرفش تتناقش أبدًا، أنت بتتلكك عشان نتطلق وخلاص، أنت واحد أناني ومبقيتش طايقاك!

– والله ولا أنا بقيت طايق العيشة معاكِ.

– أنا بس اللي مصبرني البنت الغلبانة اللي ورا دي والله!

ثم أشارت "لفريدة" ثم أنهيا ذلك النقاش الحاد الذي أتبعه صمت مطبق وتجاهل تام كعادتهما؛ يلقيان التهم واللوم ويتنافسان على من يتجاهل الآخر أكثر، ثم يعودان مرة أخرى ليعترفا بعدم تحملهما الحياة معًا، يستمر الزوجان بقذف الآخر ليُظهرا تضحياتهما؛ فيبدأ والد "فريدة" بمعاتبة "إيناس" على تقصيرها، ويختلق كل الأعذار التي تجعله يختفي ويتجاهل زوجته وابنته لمشاغله، وأن تلك المشاغل لمصلحتهما. بينما هي تُظهر براءتها وتضحياتها وتنازلاتها دومًا، ثم تواجهه بأنانيته المفرطة وهروبه من المسئولية. بينما "فريدة" تعيش بنصف روح تبدأ معاني الحياة تتجسد بداخلها بطريقةٍ أخرى.

تتشكل معاني الحب بهيئةٍ تراها في بيئتها؛ فبدأت ترى الحب، والزواج، والحياة معاناة وتعب وكدر، لكننا نختار الحياة التي تستحق أن نعاني لأجلها، لا ينبغي أن نختار ما لا نطيق بسبب ضغط المجتمع الذي يفرض علينا حياة

لا نريدها، فننجب ضحايا ليس لهم أي ذنبٍ في معاركنا الخاصة. كم نحن منساقون وراء التقاليد! ويا لفرط أنانيتنا التي تجعلنا ننجب ضحايا نشاركهم في سجننا!

تمر سيارة والد "فريدة" بجانب سيارة والد "آدم" فيشاوران لبعضهما ويتبادلان الابتسامات الصادقة، فينادي والد "آدم" عليه قائلًا:

– إيه الأخبار النهارده يا حبيبي عملت إيه؟

– الحمد لله يا بابا، إنتم إيه رأيكم؟!

فتتبادل النظرات بين والديه، ثم تقول والدته وكأنها شاهدت ما حدث:

– آآ.. آه كنت جميل أوي يا حبيبي.

كان "آدم" يعرف عدم اهتمامهما بمثل هذه التفاهات، ثم قال:

– جاسر بيرخم عليا وبيضربني.. أنا زهقت!

فيقول والده:

– عادي يا حبيبي، كلنا اتضربنا وإحنا صغيرين تلاقيه بيهزر معاك.

يتعجب "آدم" من سلبية والده ثم يصمت، فيتوقف بالسيارة جانبًا أمام سوبر ماركت ليقول لزوجته:

– ما تنزلي تجيبي لنا كيلو طماطم من جوه؟

– لا أنا مش قادرة، أنا ضهري واجعني، أنت حتى مش سائل فيا، انزل أنت المرة دي مش أنت الراجل!

– يعني هو عشان راجل أبقى سوبر مان، لازم ابقى الرجل الخارق!

– كل ده عشان كيلو طماطم!

– اسألي نفسك! وعامة خلاص يا ستي ولا تزعلي.. سلامتك

فأشاحت بيدها في عدم اكتراثٍ، ثم نزل من السيارة في قلة حيلة وقد لمس باب سيارته السيارة التي بجانبه، فنزل منها شخص قوي البنية ليمسكه من ملابسه ويسبه بأفظع الشتائم، لكن "آدم" رأى والده وهو يعتذر لهذا الرجل، ولم يرد كرامته إلى أن رحل عن وجهه، ورأى والدته تشاهد ذلك كأنها اعتادت هذا المشهد! فتبنت عقلية "آدم" أن الساكت عن حقه ليس شيطانًا أخرس.. بل ملاك مسالم، مستسلم!

والحقيقة هي أنه إنسان سلبي وجبان، لكن عقولنا لن تتحمل أن نعترف بذلك لوالدينا، بل ستجعلنا نسخة مصغرة منهما شئنا أم أبينا، إلا إذا قررنا أن تكون نسختنا جديدة بجودة أعلى؛ وذلك في حالة واحدة إن لم ننكر واعترفنا بعقليتنا الفاسدة وقمنا باستبدالها بعقلية سوية متوازنة، ففي مجتمعنا داء البشر.. الإنكار!

***

وفي عالمٍ يخلو من كل شيء يجد "آدم" نفسه وحيدًا مُلقى على الأرض، بينما آشعة الشمس تخترق عينيه وبريقها اللامع ينعكس على أرض غرفته؛ فيشعر أنه بداخل مصباح مُنار، ثم تأتي سحابة لتحجب الضوء فيدعك "آدم" عينيه لتتضح له الرؤية قليلًا باحثًا عن "فريدة" حوله، فيتصبب جبينه عرقًا ويجف حلقه من الفزع؛ فيقوم مذعورًا ليبحث عنها في كل مكانٍ، يخرج إلى الشوارع الخالية ولا يعرف أين ذهبت؟! فيظل ينادي عليها بصوتٍ متهدج ويجري في الطرقات كأنه يبحث عن عضوٍ من أعضاء جسده! لا يُشغل تفكيره أي شيءٍ سوى أن يجد حبيبته؛ ليطمئن قلبه ويستعيد روحه، فبالرغم من معاناته للفوز بقلبها، لكن قلبه لم يرفع رايته البيضاء ولم يستسلم؛ فهو يجد سعادته في عشقها وإن لم تبادله المشاعر! رغم أنها تعتبره كصديقٍ وأخٍ لكن تعلقه الشديد بها يفوق السحاب، وكأن حبه "لفريدة" هو الطعام الذي يبقيه على قيد الحياة!

لماذا نتلذذ بجلد ذاتنا وتعذيب أنفسنا؟! هل عندما نجد شخصًا يهتم لأمرنا منذ نعومة أظافرنا يجعلنا نتعلق به بهذا الشكل المرضي؟! وهل "آدم" يحبها حقًا؟ أم من فرط إعجابه وانبهاره أصبح متعلقًا بها ليس أكثر؟!

وشتان بين الحب والتعلق؛ فالحب دواء، بينما التعلق إدمان!

الحب هو أن نعطي دون انتظار أو إجبار، نحترم حرية من نحب، نحترم المسافات، نقدّر التقلبات، نحافظ على قلبه، نتقبل طباعه ولا نحاول إصلاحه.

أما التعلق، فهو أن نعطي حتى نستمد منه قيمتنا، نعطي لننتظر المقابل، أو نعطي لنمتلك قلبه كأنه تحدٍ!

نتحكم في كل ما يحب دون أن نشعره بذلك إلى أن نجعله يحب ما نحبه نحن! نتقبل مزاياه ولا نتقبل عيوبه، نحاول دومًا تغييره ليصبح "أفضل"، نريده دومًا أن يتفرغ لنا، نستغل حبه لنسيطر عليه فلا نحترم رغباته.

أما في الخصام، نجعله يُشفق علينا ونتظاهر بالمرض والموت بدونه؛ فنشعره بالذنب! ولكن... هل "آدم" كذلك؟!

ربما يُخفي تعلقه المريض وراء ستار اهتمامه المفرط، لعله ضحية الوحدة، والإهمال، والتجاهل، والتنمر!

حتى وإن كان كذلك، فما المقابل الذي ينتظره من "فريدة"؟!

بالتأكيد أن تحبه كما يحبها وأكثر، لكن هذا يندرج تحت مسمى "الأنانية" وليس الحب. فبالنسبة "لفريدة" مهما فعل "آدم" لينال حبها هي لا تزال تراه شقيقها المقرب إلى قلبها، تُكن له كل معاني الحب أكثر منه، لكن حبًا من نوع آخر، حب أنقى لا يشترط فيه أي شيء، ويا له من مصطلح معقد حقًا، جعلنا نعتبر الاستغلال حبًا، والتعلق حبًا، والإعجاب حبًا وأصبحنا نربط أي شيءٍ بالحب حتى فقدنا معنى هذه الكلمة الثمينة؛ فقد تلوث معنى الحب وتشوه تمامًا عندما ارتبط بالبشر! ويا ليتنا نتعلمه من الكائنات الأخرى.

"آدم" مريض بحب "فريدة"، والحب من طرف "آدم" فقط، كالمرض الذي يصيبه ربما يعجز الأطباء عن التشخيص أو العلاج، لكنه هو الذي يشعر بكل ألمٍ، ولا يوجد بيده شيء سوى الصبر؛ فبالمرض وبالحب نموت ونحيا، وما

بين الموت والحياة نعيش المعاناة، ويا ليت الحب باختيارنا حيث أن شيئين لا نستطيع التحكم فيهما؛ هما المرض والحب، لكن بالأمل نتحمل الحياة!

كان "آدم" يجري لاهثًا في كل الأنحاء، لا يسمع سوى أنفاسه ونحيبه، ولا يرى سوى السراب حوله، شعر أنه قد فقد الأمل لا يدري عما يبحث عن "فريدة" أو عن الأمل؟! فكلاهما واحد! "فريدة" أمله في الحياة.

توقف وجثا على ركبتيه ثم بكى بحرقة، فعندما نفقد من نحب نشعر بالضياع، ولكن "آدم" شعر أنه قد فقد روحه، عاش "آدم" حياته في عذابٍ أبدي، لم يعذب أحدًا فقام بتعذيب نفسه!

سمع "آدم" صوتًا مرعبًا وراءه يشبه الزئير؛ فارتعدت فرائصه ووقف مرة أخرى خائفًا وتهدجت أنفاسه وتصلبت شرايينه، ثم تذكر شيئًا بعد أن نظر في ساعته، ثم سمع أصوات حيوانات، ورأى خفافيش فوقه ثم وجد القرود تتسلق البنايات! فالتفت ببطءٍ وهو يعرف ما الذي سيجده؛ فجحظت عيناه عندما رأى ما يراه في الأفلام ليث ضخم بشعره الكثيف، وعيناه الثاقبة وأنيابه التي تتعطش لالتهام فريسته! شعر "آدم" أن "فريدة" كانت غداء الأسد الذي يدلف إلى "آدم" وينظر إليه بعينيه اللامعة؛ فتراجع "آدم" ببطءٍ وهو لا يشعر بجسده، بل يشعر بشللٍ في عقله ويسمع دقات قلبه كدقات جرس الكنائس، ثم تسمّر مكانه لا يدري ماذا يفعل؟!

يعرف "آدم" جيدًا أنه بعد انتهاء البشرية ببضعة أيامٍ ستسود الحيوانات في كل مكان، ولكن ما لا يعرفه لماذا تبقى "آدم" و"فريدة"؟! وأين "فريدة" الآن؟!

أخذ نفسًا عميقًا ثم أغمض عينيه مستسلمًا للموت ودموعه على وجنتيه؛ فالحياة بدون "فريدة" لا تستحق أن تُعاش، شعر "آدم" أن هذه هي النهاية؛ فقد عاش فريسةً للبشر والآن أصبح فريسةً للأسد، لكن افتراسه "لآدم" أشد رحمة من افتراس البشر له، حيث أنهم كانوا ينهشون روحه في كل لحظةٍ بلا سبب، فيعيش طيلة حياته معذبًا كميتٍ بلا روح، ولكن الأسد سيلتهمه في لحظةٍ ليشبع جوعه فكلاهما سيستريحان من العذاب! سيتخلص الليث من قرقرة المعدة وسيستريح من جوع البطن، بينما "آدم" سيستريح من جوعه العاطفي.

***

تردد "آدم" كثيرًا حتى يعترف "لفريدة" بحبه، لكنه كان مستمتعًا بقربه لها؛ فهو يرى أن يكون صديقًا مقربًا أفضل من أن يفصح لها عما في قلبه؛ فتبتعد عنه ويخسرها للأبد ويصبح غريبًا، فكان يحبذ أن لا يُخرج ما في جُعبته لها لتظل قريبة منه؛ فتحكي له أسرارها ويكون هو أول شخصٍ لسبر أغوارها وجراحها له، فشعور طيب أن تعتبره شقيقها الأوحد، الاستثنائي الذي خرجت به من حياتها؛ فهو دومًا يريد أن يُشعرها بالأمان وأنها ليست وحدها، فإذا خذلها أُناسٌ كُثُر فتركض إليه ليحتضنها بقلبه ويحتويها بروحه.

"فريدة" تعتقد أنها عندما تحتاجه تزعجه بمصائبها، لكنه هو من يحتاجها أكثر؛ فباهتمامها به تجعله يشعر بقيمته وأهميته في الوجود، فكان "آدم" هو الذي يزعج "فريدة" باهتمامه الزائد بها، لكنها تتقبله وتتحمله فهما يشكلان ثنائيًا استثنائيًا فكلٌ منهما يبحث في الآخر عما ينقصه؛ فهي تأخذ منه مشاعر التقدير والاهتمام التي فقدتها ولم تبلغها قط منذ صغرها، بينما هو يأخذ منها ما يُشعره أنه لا يزال حيًا، موجودًا، ومقبولًا من قِبَلِ الآخرين؛ فهو معها يشعر بكيانه ووجدانه وبدونها يكون كالأموات المغمورين وتلك هي ضريبة التعلق.

في عالم موازٍ حدث ما لم يكن في الحسبان، تزوجت "فريدة" من "جاسر" ولم تدعُ "آدم" ليوم عُرسها! فأُصيب بصدمةٍ شديدةٍ لم يصدق ما بدر منها؛ فهي تزوجت من عدوه ولم تدعوه لعُرسها.. كيف ذلك؟!

لم يتوقع "آدم" هذا من "فريدة"؛ لعله اعتاد أن يكون وحيدًا، ولكن كيف يعتاد الإنسان الوحدة وروحه بعيدة عنه؟! فهي بمثابة حبله السري الذي

يساعده على التنفس والحياة! لقد قالت أن "آدم" في مرتبة أخيها فكيف تبيعه وتبتعد عنه بهذه البساطة؟!

وقد ازداد الطين بللًا، عندما أرسلت له رسالة تقول له فيها: "لو سمحت يا آدم متكلمنيش تاني عشان جاسر بيزعل". ولم تعطِ له فرصة الرد، فقد حظرته من على جميع وسائل التواصل!

كان "آدم" عندما يخرج مع أصدقائه في سهرة كانت "فريدة" هي التي تشعره بتواجده، كان بدونها يشعر أنه غير مرحب به، كشخصٍ مغلق عليه في قبر تحت الأرض يتراقصون عليه ولا يبالون له ولو حتى بنظرةٍ حتى يشك بوجوده وسطهم فيتحسس جسده؛ ليتأكد من أنه لا يزال موجودًا.

ثم تضاعف الظلام على "آدم" إلى أن تسرب في أوصاله عندما استقبل رسالةً أخرى، وكانت كالقشة التي قصمت ظهره: "بارك لي يا آدم، أنا خلاص مهاجر، عايز أشوفك قبل ما أسيب مصر يا حبيبي".

استقبلها "آدم" من صديقه المقرب الوحيد "كريم" وكأن القدر ضده في كل شيءٍ، كأن القدر يريده أن يظل وحيدًا تَعِسًا، فلم يجد ردًا، لقد شعر بغصةٍ اجتاحت صدره وغلى الدم في عروقه، فهو يريد أن يفرح لصديقه ولكن في نفس الوقت لا يريده أن يبتعد! فلا يوجد أمامه سوى أن يعزي نفسه ويودع روحه التي كُتب عليها أن تعاني طيلة حياتها؛ فهو لا يعرف إلى متى سيظل غارقًا في دور الضحية الذي فُرِض عليه!

أما "فريدة"، وجدت حبها الحقيقي الذي غلب ظنونها؛ لقد غمرها "جاسر" بالورود والاهتمام التي كادت تفقد الأمل في إيجاده. بينما اهتمامه بها كان

يُعد تجاهلًا!! فكان دومًا ينشغل عنها مثل والديها يتأخر في الرد أو لا يرد عليها، والأغرب من ذلك أنها كانت تجد في تجاهله لها محبةً واهتمامًا؛ فالسعادة كانت واضحة في أساريرها، حيث أنها اعتادت على هذا في بيتها واعتبرت أن ما تراه من "جاسر" حبًا خالصًا، حتى الخلافات التي كانت تدور بينهما كانت تراها شيئًا طبيعيًا، كما اعتادت في حياتها مع أبيها وأمها، ترى أن المعاناة الزوجية فرضًا لا يمكن الانفكاك عنها، لم تجد من تشكو له؛ فهي قطعت صلتها مع "آدم" الذي كان بئر أسرارها، كانت تعتقد أنها لن تشعر بالوحدة مع "جاسر"، ولكنه تغير تمامًا عن سابق معرفتها به!

فقد كان في البداية يؤدي دورًا مختلفًا، دور الرجل المثالي الذي يحتويها ويغمرها بالحب، والمشاعر، ويُشعرها بالمسئولية تجاهها، وكان يريها بعض التجاهل الذي يثير استفزازها لكنها كانت تعتبره "واد تقيل"، ويسكب عليها القليل من الغيرة التي تجعلها مجنونة به أكثر، والهدايا التي تُشعرها بأنها ملكة على عرش قلبه، كان يبذل مجهودًا جبارًا في ممارسة ذلك الدور حتى يستحوذ على الجائزة؛ فكانت "فريدة" يُراهِن عليها الرجال! وليس سهلًا أن يفوز بها أحد، فكانت الجائزة هي قلبها وكان "جاسر" يحب التحدي؛ فهي كانت تفكر في هذا الرجل الذي يضحي من أجلها، ويقتلع عن شرب الخمر والتدخين واللعب مع الفتيات الحسناوات، فقد رأت أنه قد فعل لأجلها ذلك بسببها، رأت أنها احتلت قلبه وغيّرت حياته بدون أمرٍ منها، لكنه كان رائعًا في تنويمها مغناطيسيًا فيعطيها الدنيا وما عليها، ويُشعرها بأنه سيدها الذي عاهدها أن يصون قلبها ويحتفظ به ويحميه، وهي استسلمت له لأنها كانت تشعر معه بالأمان والاستقرار.

فقد نجح في أن يجعلها تطمئن تمامًا رغم تجاهلها له في أول لقاءٍ بينهما، لكنها بعد أن اطمأنت وأثبت لها أنه هو الأجدر في أن يحظى بحبها، أصبح سيدًا فقط! السيد الذي يبطش ويتملك ويتحكم، فقد أخذ مراده وجاء اليوم الذي ظهر دوره الحقيقي بعد أن أُسدل الستار، وانتهت مسرحيته معها ليجعلها تشعر بالدونية، كأنه تحدى أن يكسر ثقتها بنفسها ويفتتها.

كانت "فريدة" تُبدع في أداء دور المنقذ وهي تحاول أن ترضيه بشتى الطرق؛ فهو يأمر وهي تنفذ بل وقبل أن يأمر تنسى نفسها تمامًا في سبيل تلبية رغباته وإرضائه؛ حتى تثبت له أنها تستحق حبه! لكن عندما تُرهَق وتستسلم فتقرر الابتعاد، فيذهب إليها راكعًا، نادمًا، باكيًا لأنه لن يستغنى عن قلبها الساذج المفرط في العطاء، فكانت كالدلو الممتلىء الذي يغمره بالعاطفة، والحب، والمشاعر ولا تترك لنفسها قطرة واحدة! لم تنتظر منه المقابل، لكنها توقعت منه بعض القطرات من الاهتمام، والاحترام، والتقدير. انتظرت فُتات الحب الذي لم تناله من أحدٍ سوى "آدم"، فأصبح في ذهنها أنها تستحق ذلك؛ لأنها سمحت لكرامتها أن تُهان منذ البداية تحت مسمى "التضحية في سبيل من تحب"! لكن "آدم" لم يستحق أن تقهره هكذا، وتنسحب من حياته وتمحو الذكريات بسبب هذا الكائن الوحشي!

"جاسر" كان يقابل حبها واهتمامها ببرودٍ تام كأنه حقه! لقد سعى لينال هذا القلب الذي أنهكه كثيرًا، فحان وقت الجزاء ورد الاعتبار؛ فهو يعتبر علاقة الحب حرب وتحدٍ، يعتبرها ساحة معركة يفوز فيها أو يخسر، وفي كلا الحالتين لا بد أن ينتقم لكرامته؛ ليشعر بالزهو والانتصار فعلاقات الحب بالنسبة له

كالقمار الذي يراهن فيه، أو كالتجارة التي يخسر فيها ثم يمر الوقت ويحين وقت سداد الدين!

بدأ "جاسر" ينتقد الأشياء التي كانت تعجبه في "فريدة" مسبقًا؛ فقد كان مسحورًا بشعرها، وصوتها، وابتسامتها، وأناقتها لكن بعد الزواج أصبح يسخر من شعرها ويريدها أن تغطّيه بالحجاب، ثم يسخر من صوتها الذي يشبه القرود في الصراخ، حتى ابتسامتها التي تنير الأماكن أصبحت ابتسامةً باردة تثير استفزازه، غير أناقتها التي أصبحت انحلالًا!

كان يتلذذ "جاسر" بسرقة فرحتها، وعمرها، وشبابها بل وحياتها كلها، لقد كانت تفعل كل ما يمليه عليها لإرضائه، لكن دون جدوى! لا تعرف ماذا تفعل؟ تمر أمام المرآة وتبكي محدثةً نفسها: هي دي فريدة؟!

فوجهها أصبح أكثر شحوبًا، وتحت عينيها الذابلتين أصبح مظلمًا من السواد القاتم، وعيناها الحمراوان التي أحرقتها الدموع في كل ليلة تتمنى أن تكون ليلتها الأخيرة! فيمر "جاسر" من أمامها غير مبالٍ لها، كأنها جاريته التي اشتراها بمهره أو جائزته التي يضعها على الأرفف؛ ليتباهى بها أمام الناظرين وأمام نفسه، فيغيب "جاسر" ويعود سكيرًا يملأ الأجواء بسُحبٍ من دخان السجائر والحشيش، كانت "فريدة" تعرف أنه عاد إلى مرحه مع النساء، لا تجد من تشكو إليه سوى والدتها الطبيبة النفسية التي تنشغل عنها دائمًا؛ فهي لم ترها الأم الحاضنة التي تسمع شكواها، فعندما تحين الفرصة للحديث معها ترمقها بنظرةٍ تملؤها الشفقة:

– استحملي شوية يا حبيبتي، ده بردو جوزك، متخربيش على بيتك، متبقيش زيي.

كانت الدكتورة "إيناس" رافضة "لجاسر" كزوجٍ لابنتها؛ فكان يذكّرها بزوجها، وخافت أن يكون مصير ابنتها مثلها، عندما كانت تقنعها بذلك فتجد "فريدة" تقول كعادتها: "هيحصل إيه أسوأ من اللي حصل لي؟!" فكانت لا تجد سوى الأسوأ كوالدتها، التي كانت تجري للمعاناة برجليها فكلتاهما وجهان لعملة واحدة!

لقد أفرطت "فريدة" في العطاء، وتعجبت أنها مهمشة، لكنها دومًا كانت تحت الأمر بدون أن تعي ذلك مثل والدتها؛ لذلك اختارت أن تكون طبيبة لتدواي الجراح، ولا تجد من يداويها فتزيد من معاناتها رطلًا آخر.

كل مستغلٍ يحب من لا يقول كلمة "لا"، لكن "فريدة" تعجبت من استنزاف "جاسر" لطاقتها بدلًا من كلمة تطيب خاطرها، لكنها هي التي من فتحت الباب له وأعطته المفتاح؛ فسمحت له بالاقتحام والقيام بما يحلو له وأوهمها أن هذا هو "الحب".. وصدقته! لكن الحب برىء من كل ذلك، والقلب مظلوم من تلك التهم التي تُرمى على عاتقه؛ لقد استولى "جاسر" على قلبها، وروحها، واستعمر عقلها وحياتها التي تبحث عنهم الآن! فهي توقعت أن يجعل من علاقة الحب منتجعًا تجد فيه الراحة، ثم فاجأها بغابة وجدت فيها أشرس الانتهاكات؛ ولذلك وضع بعض الحدود مريح؛ لأنه يجعلنا نعرف من أولى بالدخول! والذي يحبنا حقًا هو من سيحترم رفضنا لأي شيءٍ، لكن "فريدة" تخاف من خسارته، فكيف ترفض له طلبًا حتى وإن كان الثمن.. روحها.

"فريدة" عندما تفقد شيئًا تعطي منه أكثر؛ لأنها تعلم بشعور الآخرين جيدًا عندما يفقدونه، وترى أن من لا يعطي فاقد نعمة الإحساس بالآخر؛ فهي كانت تفقد الاهتمام في بيتها وتعرف ذلك الشعور المميت الذي ينتابها، وبكاء قلبها الذي يحرق روحها ويضيق صدرها؛ فأصبحت تنسى نفسها وتعطي آبارًا من الاهتمام.

كانت تعرف "فريدة" أنها سوف تعاني، ولكنها لم تعرف أنها سوف تُهان وتُستنزف! لا تجد أحدًا لتفصح له ما بداخلها سوى "مي" التي قد سمح "جاسر" وتكرم بأن يظل التواصل بينهما، فتجدها تتكلم باستهانةٍ:

– يا بنتي احمدي ربنا هو فيه حد لاقي، ده جاسر ده البنات بتحفى عشان يكلمهم بس، ده أنتِ جاحدة!

فتبتسم "فريدة" نصف ابتسامة صفراء تعبر عن فقدانها للأمل في أن تجد شخصًا يفهمها، سوى "آدم" الذي كانت وما زالت تراه غير مناسبٍ لها ليكون شريكًا لحياتها، لكنه الشخص الذي يشبهها في أشياءٍ شتى!

معقدة تلك العلاقات البشرية، نحدد من يناسبنا ومن لا يناسبنا، بينما نحن لا نفقه شيئًا عما يدور في داخلنا.

نحن لا نفرض على قلوبنا الحب، لكن الحب هو الذي يُفرَض على القلب شاء أم أبى، وبعد ذلك تتوالى الصدمات عندما نجد أنفسنا بعد شهورٍ وأعوامٍ وقعنا في حب شخصٍ تحول إلى مسخ!

تحول "جاسر" تمامًا ولم يكن هو فقط الذي امتص دماء "فريدة"، بل والدته أيضًا التي كانت متحكمة ومتسلطة حد الجنون، حيث أن "فريدة" منذ

نعومة أظافرها تمنت أن تكون مثل "سيندريلا"، وها قد أصبحت مثلها لكن كخادمةٍ تخدم زوجها ووالدته.

لم يرَ "جاسر" في بيته سوى الأب المتسلط والأم النرجسية التي تخضع لزوجها، ولا تخضع لأي شخصٍ آخر غيره، الأم التي قامت بتدليل ابنها كثيرًا لتجعله رجلًا صارمًا له الكلمة العليا ولا يخضع لأحدٍ إلا لوالديه، لقد رأى في بيته والده الذي يسيطر على كل شيء وكأنه قد تربى في بيئة عسكرية، لا يوجد نقاش أو جدال فقط السمع والطاعة، كان والده قاسيًا معه ومع زوجته، عندما يدخل البيت كان يدب الذعر في القلوب، وتتلاحق الأنفاس، وتصمت الأفواه رغم شخصية الزوجة القوية المتسلطة، لكنه كان يفوقها بمراحل كانت تعامله دومًا بطريقةٍ استثنائية كما كانت تعامل ولدها "جاسر"؛ فكانت تجعل الجنة تحت أقدامه، لا تتوقف عن مديحه حتى وإن تصرف بغباءٍ في بعض المواقف! فصار مغرورًا مثل والديه ورأى أن كل شيءٍ من حقه ولا بد من امتلاكه، خاصةً إذا كان شيئًا يبدو صعبًا مثل "فريدة" المسكينة، فأحيانًا عندما تكون الأنثى فائقة الجمال، وآسرة للقلوب، وأخّاذة للأعين.. تحل عليها اللعنة!

شعرت "فريدة" أنها قد وقعت في فخٍ لا يمكنها الفكاك منه، لا يوجد أمامها أي خيارٍ؛ فعندما يفيض بها وتطلب الطلاق من "جاسر" كان يرفض بشدة، وكأنها شيءٌ يملكه إلى الأبد حيث أنه لا يمكنها أن تتجرأ وتطلب ذلك! فبعد أن تخيلت نفسها ملكة متوجة على العرش، اصطدمت بواقع مرير جعلها سجينة طيبتها، ولطبعها الكتوم الذي لا يفصح عن شيءٍ بسهولة جاء اليوم الذي كان بمثابة الطامة الكبرى!

دخل "جاسر" البيت وكان يظهر عليه آثار الغضب؛ فحاولت "فريدة" أن تهدىء من روعه لكنه قابلها بلهجةٍ عنيفة سوقية ليخرسها؛ فصمتت وكأنها اعتادت الإهانة، ثم دخلت غرفتها لتفرغ ما في جفونها من دموعٍ وتُنهي دورة نحيبها اليومي، فدخل عليها "جاسر" وصفق الباب خلفه بعنفٍ، ثم مر من أمامها ذهابًا وإيابًا كأسدٍ ينتظر الانقضاض على فريسته، بينما هي كانت جالسة على حرف السرير ترمقه بنظراتٍ مليئة بالخوف ودموعها على وجنتيها، ثم جلس أمام المرآة وبنبرة آمرة قال:

– أنا جعان.

فقالت بصوتٍ متهدج:

– الأكل في المطبخ.

ثم دلف إليها وقدحت عيناه شررًا، ووقف أمامها فرفعت عينيها له وقد فهمت ما يرمي إليه؛ فتحسس وجهها ثم شفتيها وبدأ يتفحصها بنظراته كأنها فتاة ليلٍ قد اشترى فرجها! ثم سمعت لهاثه وأنفاسه وهو يقترب منها بوجهه غير مبالٍ لرغباتها، فأحست بالتقزز ثم حاولت إبعاده عنها قائلةً:

– جاسر.. أنا مش عايزة.. ابعد!

فنظر لها متجاهلًا ثم أمسكها من كتفيها في عنفٍ قاصدًا إيلامها وكأنه سيهم بالتهامها، فضمها عليه ثم أمسك خصرها وأقبل على شفتيها، لكنها أبعدت وجهها عنه محاولة دفعه بعيدًا، لكنه أحكم قبضته ونظر لها غاضبًا ثم أعادت ما قالته وهي ترتجف:

– جاسر أنا تعبانة لو سمحت.

فتجاهل طلبها واستمر في تقبيلها وأطبق بشفتيه على رقبتها، بينما هي نظرت له مشمئزة وتلاحقت أنفاسها، فصعد بيديه على صدرها فدفعته بقوة صارخة:

– هو أنا مش قلت مش عايزة!! هو فيه إيه؟!! هو أنا بهيمة!! أهم حاجة مزاجك بس! إنت إيه يا أخي؟! حيوان!!!

لم يتوقع "جاسر" رد فعلها الذي جاء بعد تراكمات؛ فانهال عليها بالسُباب والضربات، فأخذت تصرخ وما كان بوسعها شيء سوى الصراخ والبكاء، فقام بجرها من شعرها كالبهيمة، ثم حملها على ذراعيه وألقاها على السرير، وأخذ حبلًا ليربط يديها ورجليها ربطًا محكمًا لم تصدق نفسها وأخذ يعلو نحيبها، فكانت ترجو الاستغاثة من رفيق حياتها وعدوها في نفس الوقت، ثم خلع بنطاله وكشف عن ساقيها فاستسلمت له باكية، وظلت تصرخ حتى ألصق فمها بشريطٍ لاصق لتتم مهمته دون أن يزعجه صوتها، أغمضت عينيها وشعرت لأول مرة أنه يتم هتك عرضها.. من زوجها!!

فكانت تحاول فك وثاقها والانفلات من قبضته، كانت تتململ كالفرخ الصغير الذي يحاول الهرب، بينما هو لا يشغل باله بشكواها حيث أن لديه هدف يرغب في الوصول إليه بضمير ميت وبلا شعور! لقد كان صدرها يعلو ويهبط من الخوف كالمنطاد المثقوب، كانت تشعر أن روحها تصعد ووصلت إلى حلقومها، لقد تمنت أن تستمر في الصعود ليشبع بجسدها، وتلوذ هي بروحها فرارًا من "جاسر" الذي يستمر في انتهاكها قهرًا ولا يعبأ بقهرتها؛ فهي توقعت كل المساوىء لكنها لم تتوقع مُطلقًا أنها سوف تُغتصب من شريك

حياتها، ولم يتبقَ سوى صوتها المتهدج وصوته المتلذذ، كأنها من حريم السلطان الذي أخذ وطره منها بدون رحمة أو شفقة!

لم تُخلق "فريدة" لإرضاء شهوة "جاسر"؛ فقد كرّم الله المرأة وأهانها المجتمع، جعلها قرة عين أبيها فأساء إليها، عشقت زوجها فاغتصبها رغم أنها هي الجزء المهون لمتاعب الحياة؛ فالمرأة هي التي أنجبت الرجل فكيف تُهان؟! أين عقولنا عندما ميزنا الله عن الحيوان؟!

لقد عانت "فريدة" كثيرًا ولم يشعر بها أحد، هل هذه هي ضريبة الطيبة والعطاء؟! فما أسوء من دور "المنقذ" الذي يستنزفه الضحية والجاني؛ فالضحايا يحتاجون الإنقاذ دومًا، بينما الجناة يستغلون من يدمن الإنقاذ كأنه جاء ليصلح ما أفسده الآخرون فلا يجد من يصلحه، مثل "جاسر" وأمثاله الجناة الذين يمصون الدماء وينهشون الأرواح، ثم يتساءل المنقذ: "متى تحلو الحياة وأجد من ينقذني من وحلتي؟!" فيعيش حياته مضحيًا في سبيل من يستحق ومن لا يستحق، ولا يدري أن نفسه هي التي تستحق الإنقاذ! كأنه المسئول عن إصلاح الكون؛ فينسى أنه مخلوقٌ وليس خالقًا مثل "فريدة" التي نسيت نفسها ووضعتها جانبًا، فعاشت كماء المطر الذي ينبت الأرض وهي تجد سعادتها في ذلك، لكن عندما توقفت الماء ولم يتبقَ من رصيدها شيء يحيي روحها، فلم تجد من ينبت أرضها، بل وجدت من أفسدها وانتهك تربتها الخصبة، رغم أنه من حقها تلك قناطير الحب التي ينفقه قلبها ولو حتى قنطار واحد!

***

"آدم" لم يكن مبالغًا؛ فقد كانت حياته صعبة حقًا ولكن من حوله كانوا يرونه مدللًا؛ فحياة الآخرين نراها كقطعة الحلوى المغلفة لا نعرف ما بداخلها، لكننا نصدر أحكامًا قاسية ونقول ما ليس فيها؛ فهناك من يرى أنها قطعة من الشوكولاتة وآخر يرى أنها علكة، بينما لا أحد يدري حقيقتها التي في الأغلب تكون فارغة!

بعد أن تلقى "آدم" خبر وفاة والديه لم تتردد "منى" في أن تكفله وتربيه في بيتها؛ فهي ليس لها أحد وفي أوائل الأربعينات ووحيدة مثل "آدم" تمامًا؛ فلعل القدر قد فعل ذلك ليؤنسا ببعضهما، حيث أن "آدم" يعتقد أن القدر ضده دائمًا، لكن القدر يعمل لصالح البشر جميعًا وليس لمصلحة "آدم" فقط!

عاشا سويًا في سلامٍ تام، لكنه رأى أن "منى" مسالمة تمامًا، لا تعرف كيف تأخذ حقها ويملؤها الجبن حيث أن ذلك لا يظهر عليها في نطاق العمل؛ وهذا قد ترتب عليه أنها كانت عاجزة عن رد اعتبار "آدم" ومعاقبة "جاسر"؛ لخوفها من بطش والديه.

فوالده الغاشم كان قادرًا على أن يغلق المدرسة بأكملها ويلفق التهم للمديرة، وكل ذلك بمكالمة تليفون واحدة!، فبعد أن اشتد الحوار بينها وبين والدته لقت هاتفًا يهددها من قِبَل والده بأن تترك "جاسر" ليفعل ما يحلو له، حتى لا تنقلب حياتها رأسًا على عقب.

كان "آدم" يعتبر "منى" والدته، وكان يكبر أمام عينيها، كانت هي العوض عن كل الآلام التي واجهها؛ فقد عاش أجمل أوقاته معها، وفي يوم من الأيام

كان في سن المراهقة وقتها دخل عليها في غرفتها خِلسة، فرآها تقرأ كتابًا ثم لقته بابتسامةٍ حانية تزيل عنه جبلًا من الهموم، فأغلقت الكتاب قائلةً:

– تعالى يا آدم يا حبيبي قل لي عايز إيه؟

كان يشعر معها بانشراحٍ في الصدر وانفراجة في القلب كأنها هي التي حملت به وأنجبته، فكانت هي ملاذه الآمن الذي يجد فيه روحه الضائعة! فدلف إليها قائلًا:

– أنا.. أنا بحب فريدة أوي، ومش عارف أعمل إيه؟! إحنا صحاب آه.. بس حاسس إنها مش حاسة بيا خالص.

– مفيش بنت مبتحسش باللي بيحبها يا آدم.

– طيب ليه مبتحبنيش زي ما أنا بحبها؟! وعلى طول واقفة مع جاسر ده! مع إني بهتم بها أكتر منه!

فأصابتها القُشعريرة عندما مر اسم "جاسر" على مسامعها، ثم قالت في لين:

– مش هتقدر تفرض على حد إنه يحبك يا حبيبي، زن عليها، إعزمها في احلى مكان، إتشقلب لها.. بس لو ربنا محطش في قلبها المحبة والقبول خلاص.. مفيش حاجة بإيدك تعملها!

– يعني هفضل أحبها كده وهي متحبنيش؟!

– يا حبيبي متبذلش مجهود عشان خاطر حد مش واخد باله منك، وبعدين أنت مين قالك إنك هتبقى مبسوط معاها؟! ده جو مراهقين يا آدم، بكره تكبر وتعقل وتعرف إنك عايز تعيش حالة الحب، مش الحب نفسه!

تأفف "آدم" وقطّب جبينه فنظرت له "منى" في شفقةٍ كأنها رأت روحها من خلاله، فكانت تتعلق برجلٍ أعوامًا مديدة إلى أن عرفت أن هذا حب مرضي ينبع من عدم تقديرها لنفسها؛ فمر قطار عمرها أمامها متعلقة به إلى أن دهسها وأصبح مصيرها هو.. الوحدة!

فحاولت أن تهون على "آدم" قليلًا، فأشارت له بيدها ليقترب:

– طيب بص يا آدم، أنا عارفة إنك مبتحبش القلقاس، بس بردو بقنعك بيه على أساس إنك تغير مشاعرك تجاهه، عرفت تغير رأيك وتحبه؟!

فأومأ برأسه معترضًا وقد ظهر عليه التقزز، فضحكت مردفةً:

– أنا بقى بحبه، واللي عايزة أقوله يا حبيبي، إنك تهون على نفسك شوية، متجيش على نفسك عشان أي حد. ولا حتى عشاني! يمكن فعلًا فريدة دي تكون جميلة ومحصلتش، ومفيش زيها بالنسبة لك، لكن هي اللي خسرانة حبك واهتمامك، وأنت أولى بالحب ده، أنت والناس اللي مقدراه وبتحبك زي ما أنت. وعلى فكرة بقى الحب فيه كرامة، والمشاعر مبنشحتهاش، المشاعر بتتفرض علينا زي واجب المدرسة، بس اوعى يا آدم تثبت لحد إنك تستاهل الحب والتقدير، إثبت لنفسك بس.. هما اللي مش شبهك، وهما اللي مش فاهمينك يا حبيبي.

– هي مش شايفاني أصلًا.

– تبقى دي مشكلتها، هي اللي عندها مشكلة في عينيها وقلبها، دي مش مشكلتك أنت خالص!

– يعني أعمل إيه؟!

– سيب ربنا يقذف الحب في قلب اللي يستحقك.

– طيب وربنا ليه ميخليش فريدة تحبني؟!

فرمقته بنظرة عطفٍ جعلت دموعها تذرف بعد أن رأت دموعه وهو يكبحها، فمسحت دموعها واستعادت رباطة جأشها ثم قامت من مكانها لتمسح على وجهه بيديها في رفقٍ قائلةً:

– يمكن عشان ربنا عايزك تحب نفسك شوية وتقدرها.

فحاول كبح دموعه وكاد صدره ينفجر من أبحر البكاء التي يخزنها؛ فشعرت بأنفاسه المكتومة:

– عيط يا حبيبي لو عايز، ومتكتمش حاجة جواك!

– بابا وماما كانوا بيقولوا لي مفيش راجل بيعيط.

ثم عانقته بحرارةٍ وأخذته بين أضلعها لتطمئنه، وتُشعره بوجدانه وكيانه الذي فقده أطوارًا:

– وأنا بقول لك إن مفيش راجل مش بيعيط يا آدم، اللي مبيعيطش ميبقاش راجل، وميستحقش يكون إنسان.

فأجهش بالبكاء وهي تحتضنه منتحبةً كأنها هي التي تحتاج إلى ذلك العناق الذي لا يوجد أصدق منه.

***

مرت الأعوام، وتبدلت الأحوال، وتغيرت الأقدار، وتداخلت العوالم حتى أصبح لكل شخصٍ عالم خاص به وحده.

فهربت "فريدة" من عالم "جاسر" الذي كانت تبحث بداخله عن الحب الخالص، فخرجت من عالمه وهي تلملم فتات قلبها، وتجمع شتات روحها التي تاهت في غيابات حبه المشوه، فما أبشع من يزرع في قلوبنا الأمل ليجني ثمار الحب، ثم يعطينا النواة فيتركنا بروحٍ ذابلة بلا أمل.. وبلا قلب!

لقد رفعت "فريدة" عليه دعوى الخلع وقامت بخلعه وانفصلت عنه تمامًا، واستطاعت أن تأخذ حقها منه بالكامل، لكن كيف تأخذ منه روحها التي نُهشت، وقلبها الذي كُسر وتهشم كشظايا الزجاج، ومن يعيد لها نور وجهها الذي انطفأ، وابتسامتها الفاترة التي زالت؟!

حاول "جاسر" أن يطاردها كثيرًا، تارة باللين وتارة بالعنف؛ فكان يلعب بعواطفها في حرفية شديدة وفي هذه اللحظة حرفيًا لم يصبح لديها أي شيء تخسره، فمن يخسر نفسه لن يجد ما يخاف على خسارته!

استعادت "فريدة" حياتها مجددًا، وعادت لتتواصل مع "آدم" وهي في أوج إحراجها، الذي اختفى عن الأعين والأنظار بعد أن تزوجت "منى" من رجلٍ غاشم كان يريه ظُلمة الليل في نور الصباح، لكنها كانت تُعمي بصرها وقلبها عن "آدم"؛ خوفًا من أن تخسر زواجها الذي انتظرته طويلًا، إلى أن انتهى به الأمر وهو في ريعان شبابه أن يعود إلى منزل والديه الذي انغمس في الغبار؛ فعاد إلى غرفته مصدومًا من تقلبات البشر التي تذكره بالبحر الأزرق الهادىء الذي يدخل في أعماقه وهو مطمئن، فيتفاجأ بأمواجٍ متلاطمة ودوامات

تسحبه بقوة، فيعود "آدم" ويصبح في عالمه البسيط وحيدًا شريدًا ينتظر أجله بفارغ الصبر!

أما "فريدة" فشعور الوحدة الذي كان ينتابها أصبح واقعًا؛ لم يكن لديها الرغبة في أن تتواصل مع أحد، ومعظم من حولها لم يكن لديهم الرغبة في التواصل معها، حتى "مي" التي اعتقدت أنها صديقتها المقربة اكتشفت بعد شهورٍ من انفصالها أنها تزوجت "جاسر"!! كأنها كانت تخطط لذلك حتى تطفىء النار المتقدة تجاه "فريدة"، وتشعر أنها مثلها فيجول في خاطرها أن "فريدة" لا تستحق جاسر، لكن أنا من أستحقه. بالطبع تستحقينه؛ فالسلعة الرخيصة ينتهي بها الأمر؛ لتكون في يد من لا يقدّر قيمتها.

لم تعرها "فريدة" اهتمامًا بل هي اطمأنت أن قرارها كان صائبًا؛ "فجاسر" لم يحبها ولن يحب "مي" لكنه فقط يحب نفسه المدللة التي تختبىء وراء ستار الذكورة، والعظمة، والجبروت لكن إذا كُشفت الستار فسنجد طفلًا يتمسك بألعابه حتى يسأم منها أو يكسرها؛ فكلٌ منا يرغب في شخص ليستمد منه قيمته المفقودة، تحت مسمى "الحب"، ذلك الكنز المفقود الذي نبحث عنه في أماكن مظلمة؛ فينتهي بنا الأمر لنكتشف أن هذا الظلام.. بداخلنا نحن!

لكن "فريدة" لم تعِ ذلك؛ فهي تسكب بحارًا من الحب على من حولها، ثم تتفاجأ بفكٍ مفترسٍ يغرقها في الأعماق إلى أن تفلت من قبضته بأعجوبة، فيخفق قلبها وتتسع حدقاتها ولا تفهم ماذا يجري؟ ولماذا؟!

أصبحت الأنثى تخاف من الاقتراب، تخاف من الحب، تخاف من البشر! وأصبح الرجل يخاف من المسئولية، يخاف من الاحتواء، ويخاف من المرأة!

كل منا يتعلق بالآخر، وفي نهاية المطاف نتنافس على من سيقرر الانفصال!

هل انتهى رصيد الصبر كالقهوة التي نتركها بضع ثوانٍ فنجدها قد هاجت وفارت ولم تتحمل إهمالنا لها؟!

أم هل انبهارنا وإعجابنا ببعضنا قد انطفأ وانطمس بعد أن انتهت فقرة التمثيل، والفستان القصير، والقميص الأسود الأنيق؛ فاصطدمنا بطبيعتنا وتفاجأنا أن لدينا عيوبًا وندوبًا وثغرات؟!

في بعض الأحيان تشعر "فريدة" أن الحيوانات أوفر حظًا منا؛ لأنهم لا يحتاجون أن يتلونوا أو يُظهروا ما ليس فيهم، فلديهم من البساطة والعفوية ما يكفي، وليس لديهم خوف من المجتمع!

كل طرفٍ منا يريد أن يأخذ فقط؛ فأصبح الدخول في علاقة حب كالدخول إلى مدينة الملاهي، ندفع تذكرة لندخل ونلعب قليلًا ثم نسأم ونبحث عن لعبة أخرى، وهناك من لا يدفع ويرغب في أن يلهو فقط!

هل أصبحنا في وسطٍ مادي سطحي حيث قلت فيه القيم، والأخلاق، والمبادىء، والحب أيضًا؟! الحب الذي أصبح قاتلًا رغم أن وظيفته أن يكون نسمة الهواء التي تحيي القلب!

لم تنتهِ حياة "فريدة" لكنها توقفت، ولم يمت قلبها لكن مدة صلاحيته في الحب والعطاء قد انتهت، ولم تصعد روح "فريدة" إلى السماء، لكنها لا تدري أين ذهبت؟ لقد ضلت طريقها حتمًا.

***

العلاقات معقدة للغاية، والنفس البشرية معقدة أكثر، تحدث أشياء في حياتنا لا يوجد لها تفسير منطقي، لا نعرف إذا كان القدر معنا أو علينا؟

كل ما هو مكتوب سيحدث لنا لا محالة، ولكن.. نحن لا نعلم أي شيءٍ عن أقدارنا المكتوبة، فنحن من نكتب كتابنا، فلماذا نلقي دومًا اللوم على القضاء والقدر رغم جهلنا به؟!

فدومًا نحن بنو البشر نتفنن في إلقاء تقصيرنا وأخطائنا على الآخرين، وعلى كتابنا الذي نكتبه بأيدينا، أفعالنا تكون بخطنا في كتاب القدر، لكننا حتى لا نشعر بالذنب حيالها، فننكر أن زر التحكم تحت إصبعنا.

إذا نجحنا ننسب النجاح لأنفسنا، وإذا ابتُلينا نُلقي اللوم على نصيبنا ومصيرنا.

يا ليتنا نعلم أننا من نتحكم في الأشياء التي تحدث بسببنا ومن صنع يدينا! لكننا ليس لنا يد فيما يحدث لنا.

وهناك فرق شاسع كفرق القطار والطائرة؛ فالغاية واحدة ومحتمة، لكن الوسيلة مختلفة والطريق هو ما نختاره.

"فريدة" لا تدري إذا كانت قد اختارت نصيبها أم نصيبها هو الذي اختارها؟ فمن ذا الذي يريد أن يعترف بغبائه وعناده؟! من ذا الذي يريد أن يصاب بالأرق ليالٍ طويلة من عذاب الضمير وجلد الذات؟!

فنحن نحب أن نبحث عما نلقي عليه عثراتنا؛ حتى لا نتحمل مسئولية سقطاتنا، ثم نُدمن استخدام نبرة العجز، فلماذا نرهق أدمغتنا بالمكتوب؟ ولا نفكر في أن نعيد الكتابة برفقٍ ونختار طريقًا سلسًا؟! لماذا نأبه بالوصول

ولا نعيش الطريق الذي اخترناه؟! فمصائرنا وأقدارنا تُكتب لنا لا علينا حسب اختياراتنا، إلى أن لا نجد أي خيار لدينا فنُسجن قهرًا في قدر ما.

تشعر "فريدة" بالضياع، وكأنها منفصلة عن واقعها الذي يشبه القارورة التي استولت على روحها، وجعلتها ترى العالم من منظورٍ غامض؛ فتشعر أنها في عالم غير حقيقي مليء بالتُّراهات، عالم يخلو من البشر ومن كل شيء؛ فشعور الخواء الذي بداخلها أصبح حولها، التفاصيل التي كانت تشتهيها زهدت فيها، وفقدت الرغبة في الحياة، وفي البشر، وفي نفسها أيضًا، "آدم" كان يشبهها في ذلك الشعور، لكنه كان يعيشه حقًا.

رن هاتف "فريدة" فوجدت والدتها تتصل بها؛ لتستعجلها وتذهب لها إلى عيادتها حيث أنها كالعادة ستعود للبيت متأخرة، فتعجبت "فريدة" حيث أن الدكتورة "إيناس" لا تبحث عن ابنتها إلا في المصائب فقط! فما الذي ينقصها لتكتمل مصائبها؟!

عندما طال غياب "آدم" على غير عادته وحاولت الوصول إليه لكن بلا جدوى، استعانت بوالدتها حيث أنها تعتبره مثل ولدها وتعرفه منذ قديم الأزل، لكن ما لا تعرفه "فريدة" أن "آدم" أُصيب بمرضٍ نفسي، ولم تحاول الدكتورة "إيناس" إبلاغ "فريدة" طيلة هذه الفترة حتى لا تتراكم مشاكلها؛ لكنها قررت أن تصدمها الآن فهي شعرت أنه وقت مناسب، أو لعل هناك سببًا آخر!

لم يتوقف عقل "فريدة" عن التفكير وهي في طريقها حتى وصلت إلى العيادة؛ فدخلت إلى والدتها في توترٍ شديد، وجلست أمامها مقتضبة وترمقها بنظراتٍ يملؤها القلق قائلةً:

– فيه إيه يا ماما؟! آدم ماله؟!

تعجبت الدكتورة "إيناس" من توجس "فريدة" الصائب وحدسها الذي توقع أن مجيئها كان سببه "آدم" فقالت:

– آدم كان تعبان أوي الفترة اللي فاتت، كان تعبان نفسيًا، كنت بطمن عليه من قبل ما تقولي لي، فلقيته لوحده تمامًا وحالته تصعب على الكافر، كنت عارفة إنك في مشاكل ملهاش أول من آخر ومكونتش عايزة أشيلك هم.

فأومأت "فريدة" برأسها مقدرة ومتفهمة ما ترمي إليه، ثم أردفت "إيناس":

– آدم اتشخص بمرض نفسي اسمه De personalization - De realization Disorder (D.D.D) وده يعتبر من الاضطرابات الانشقاقية، اسمه اضطراب الآنية واضطراب الإحساس بالواقع، لكن اضطراب الإحساس بالواقع كان عنده أعلى، أي حد ممكن يكون عنده المرض ده بنسبة ضئيلة.. وبيكون سببه صدمات من الطفولة.. إهمال من اللي حواليه، إكتئاب، توتر.. كل ده بيساعد إنه يخلي المرض ده يتفاقم لو محدش لحقه.

فحدجتها "فريدة" بنظرات لوم وحسرة حيث أنها تعيش في ذلك الإهمال سنوات طويلة، ولم تعِ والدتها بذلك!

يظهر على "إيناس" الحزن والشفقة، وقد بدا عليها الاهتمام لأمر مرضاها أكثر من ابنتها، فأردفت قائلةً:

– في الأول مكنش بيستجيب للعلاج، لكن بعد كده استجاب معايا واتكلمنا مع بعض واديته أدوية، عرفت إنه عشان عانى كتير في حياته من التنمر، والإهانة، والتجاهل، والوحدة فاتصاب باضطراب نفسي.. خلق له عالم تاني!

فتلاحقت أنفاس "فريدة" وجحظت عيناها، وشعرت أنه يعاني أكثر من معاناتها فقطّبت قائلةً بصوتٍ متهدج:

– أنا مش فاهمة حاجة، قولي لي ماله على طول يا ماما ومتقوليليش مصطلحات مكلكعة وتوتريني، فهميني أكتر!

فأخذت "إيناس" نفسًا عميقًا ثم زفرت في مللٍ قائلةً:

– يعني يا فريدة طول الفترة دي كنت بعالج آدم من مرض نفسي مخليه يحس إنه مش موجود، معندوش إحساس باللي حواليه ولا بنفسه، مخليه يحس إنه منفصل عن الواقع ومنعزل تمامًا، حاسس طول الوقت إنه في عالم آخر، كأنه بيتفرج على فيلم أو عايش في حلم، مش حاسس بنفسه ولا حاسس بالواقع اللي هو عايشه.

– آدم!!!

قالتها "فريدة" بصوتٍ مكتوم ممتلىء بتأنيب الضمير، والشفقة، والحزن على صديقها المسكين؛ فهي وجدت من ينافسها في المعاناة بل ويشعرها أنها صديقة لا تستحق أن يُنظر في وجهها، بل الأجدر أن يبصق عليه!

فأردفت "فريدة" متسائلة بينما كان عقلها يدور كالمروحة:

– طيب وهو عامل إيه دلوقتي؟! وإيه السبب في إنه يحصل له كده؟! وإيه العلاج؟!

فشعرت "إيناس" بأنها تشبهها في إنقاذها للآخرين والخوف عليهم أكثر من نفسها، فأجابتها باقتضاب نظرًا لضيق وقتها:

– روحي شوفيه يا فريدة، هو بقى أحسن يمكن أنتِ تكوني علاجه.

فرمقتها "فريدة" بنظرة استفهامية حيث أنها شعرت بأن إجابتها بها شيء من الريبة؛ فأرادت أن تعي أكثر لكنها أحبت أن تزوره أولًا ثم تفهم لاحقًا، فرحلت من عيادتها متوجهة إلى بيت "آدم" الذي افتقدته، كما افتقدت قلبها الشريد الذي أصبح فارغًا، لا يكن سوى مشاعر الخوف التي تملأ ذلك الفراغ فتغشاه ظلمة.

وفي طريقها انتابها شعور أن شخصيتها قد اضطربت وشارفت على التبدد كآدم الذي اغترب، وتبدد محيطه وواقعه، لكنه اختلق عالمًا آخر فريدًا من نوعه.. خالٍ من البشر، قد عاشه مع "فريدة" فقط التي كانت وما زالت مرضه، وعلاجه، ولعنته، ورحمته!

يأخذ "آدم" دواءه ثم يتبعه بكوبٍ من الماء يشربه ويبتلعه في مرارةٍ وهو مقطب الجبين؛ فهو يشعر أن الدواء ليس له فائدة، فهو يعرف دواءه ويعرف مرضه الذي قد شارف على الشفاء منه؛ فشعر أنه يمكنه الاعتياد على الحياة بدون "فريدة" أو غيرها، لكنه يأخذ الدواء ليريح ضميره رغم أنه يزيد حياته مرارة، فعندما عالجته الدكتورة "إيناس" وساعدته على الخروج من عالمه الوهمي ليعيش في هذا الواقع المرير كان هذا بمثابة عذاب وليس علاجًا!

يذهب "آدم" إلى المطبخ ليسوي فنجانًا من القهوة، ثم تفور القهوة فلا يلقي لها بالًا، يمسك الكنكة في برود ويسكبها في فنجانه المفضل الذي أهدته "فريدة" له في يوم ميلاده، الذي كان آخر يوم يراها فيه قبل أن تتزوج وتُسلب منه ويُغسل دماغها من "جاسر" بأن "آدم" هو عدوها.

يمسك "آدم" قهوته ثم يذهب ليجلس على كرسيه المفضل في غرفته رغم خلاء البيت، لكنها منطقة راحته وهو بجانب النافذة؛ فيشرد ذهنه وبجانبه القهوة والكتاب حيث أنه كان يشعر كثيرًا أن كثرة القراءة كانت هي السبب وراء فقدان عقله.

وقبل أن يهم برشف رشفة من القهوة سمع جرس الباب، فتجهم وجهه وتطرق إلى أن اليوم ليس المتفق عليه من الدكتورة "إيناس"، ودون ذلك لقد شعر بتحسن رغم أن العيش في الواقع الذي خرج إليه يراه مرضًا، بينما العيش في عالم آخر يراه هو الشفاء والحياة!

قام "آدم" ليفتح الباب، وقد انقبض صدره وشعر أن من وراء الباب قد تكون هي داؤه ودواؤه.

– فريدة!!

قالها "آدم" بعد أن فتح الباب ورآها، رأى أمامه من توقفت حياته بسببها، رأى من تخلت عنه وهو في أشد الحاجة إليها لتذهب إلى عدوه اللدود الذي كان يبرحه ضربًا أمام عينيها.

رأى اللعنة التي لم يتعلق قلبه بأحدٍ سواها، اللعنة التي يذوب فيها عشقًا عندما يرى قسمات وجهها؛ فتجعل من صلابة الجبل نهرًا سائلًا، لم يعرف إن كانت هي اللعنة أم الرحمة!

ارتعدت فرائصه، وتجمدت أوصاله، وأصابته قُشعريرة سرت في جسده لم يعرف سببها؛ فقد اضطربت مشاعره وازدادت ضربات قلبه، ولا يعرف إن كان مسرورًا لرؤيتها أم ممقتًا لمجيئها؛ فقلبه لا زال مغرمًا بها، وها هو

يرقص فرحًا عندما رآها، بينما عقله يدفعها دفعًا ليحميه من أن يصيبه سهام الألم والشجن، فكيف يكون مصدر ألمه هو مصدر راحته؟!

– وحشتني يا آدم.. أنا آسفة.

قالتها فريدة ودموعها على وجنتيها، وكان صوتها وكلامها كنسمة الهواء على مسامعه؛ فقد افتقد ذلك الصوت الذي تيقن أنه كان وما زال طوْق نجاته، كان وجهه جامدًا لكن بداخله بكاءً حارًا ونارًا متقدة تركتها "فريدة" تشتعل وتحرق قلبه منذ اللحظة التي أرسلت له رسالة تودعه فيها للأبد، بل وتشعره بأنه حملٌ ثقيل وضغطٌ لا يُحتمل.

لم يجد "آدم" كلامًا يقوله، لكنه اكتفى بفتح الباب على مصراعيه حتى تدخل كأنه بيتها بدون أن يتفوه بكلمة، فدخلت "فريدة" بنظراتٍ مخجلة تنظر في الأرض كأنها فعلت شيئًا مشينًا، فأغلقت الباب في هدوءٍ وأدار ظهره لها وهو يكبح دموعه قائلًا بصوتٍ مكتوم:

– البيت بيتك.

ثم هرع إلى غرفته ليكمل خلوته مع قهوته والكتاب كأنها لم تجيء! فشعرت "فريدة" بالإحراج وتعجبت من جموده، وبروده، وعدم اشتياقه لها، لكنه اشتاق إليها أعوامًا حتى اجتاح شوقه الصدأ فصار قلبه واهنًا، لم يعد "آدم" كسابق عهده؛ فقد الشغف والبريق الذي كان يملأ عيونه عندما يراه، كان مريضًا "بفريدة"، وعندما بدأ أن يُدرك واقعه ويعيش حياة جديدة بدونها رغم صعوبتها.. جاءت لتزيدها صعوبة، كأن القدر يرفض تخطيه لتلك المرحلة، لكن "آدم" في سريرة نفسه كالطفل الذي يقفز فرحًا أمام

قطعة حلوى، فمهما حدث "فريدة" هي نقطة ضعف "آدم"؛ فهي حلو الحياة الذي يعيد الأمل ويحيي القلب ويوجد الشغف!

جلست "فريدة" أمامه، فرمقها بنظراتٍ مشتاقة والدموع في عينيه، بينما هي تحدق في وجهه بالابتسامة التي يعشقها، فاغتصب ابتسامة فضحت ما بداخله، فضحكت وانفرجت أساريرها وهي تمسح دموعها ثم بكت.

فنظر "آدم" لها مشفقًا عليها لا يعرف ما الذي ينتابها، لكنه يعرف أنها تدمن الشعور بالذنب، فلم يحب أن يزيد من معاناتها أكثر بصمته وجمود وجهه، فجثا على ركبتيه أمامها ورفع يديه برفقٍ على وجهها ثم مسح دموعها! فتبادلا النظرات التي أفصحت عن الكثير، فكانت في أعينهما لغة وعناق لا يفهمها أحد غيرهما.

فبادلها بابتسامةٍ حانية وكان يرغب في أن يُخرج ما في جُعبته من لومٍ وعتابٍ، لكنه شعر بتهشم قلبها فلم يُرد أن يزيده تهشمًا ويطعنه، فيبدو عليها أنها لن تتحمل أي كلمة فيكفي ما فعله الزمن بها، ويكفي شحوب وجهها وندوبه المخبأ وراءه جبال من المآسي والهموم.

– فريدة.. أنتِ كمان وحشتيني، أنا اللي عملت في نفسي كده، أنتِ ملكيش ذنب، أنا ذنبي إني.. بحبك.

فنظرت له "فريدة" وكان ثغرها مفتوحًا من الدهشة، ثم قالت:

– أنا.. أنا كنت فاكرة إن إحنا إخوات يا آدم، ليه مقولتليش كده من زمان؟!

فشعر "آدم" بغصة في صدره وتطرق أن عمره قد ضاع في الكتمان والخوف؛ فهو لم يعترف بحبه لها طيلة هذه الأعوام؛ لأنه كان جبانًا.. كان خائفًا من رد فعلها.. لقد خاف من خسارتها، فقال لها:

– كنت خايف إنك ترفضي، وساعتها كنت هخسرك للأبد.

عاد "آدم" إلى كرسيه وهو ينظر في الأرض في حنقٍ، فنظرت له "فريدة" بابتسامتها البراقة قائلةً:

– حتى لو رفضت يا آدم، أنا مستحيل أخسر حد جميل أوي زيك.

– أنتِ اختارتِ تخسريني يا فريدة لما اتجوزتِ جاسر وقطعتِ معايا.

فشعرت "فريدة" أن "آدم" بدأ في تأنيب ضميرها كعادته، ثم بدأ صوته يعلو شيئًا فشيئًا كأنه كان يدخر أثقالًا على صدره، وقد حانت له الفرصة الآن ليلقيها على من كانت السبب في معاناته دون أن يعبأ بجراحها؛ فهي بحروف عفوية كاذبة ضغطت على زرٍ جعله يفيض بمشاعره، فوقف وبدأ يمشي ذهابًا وإيابًا في توتر، وكانت ترتعد مفاصله مرُددًا بنبرةٍ بها حدة:

– أنتِ عارفة كويس إني كنت بحبك، نظراتي وأفعالي وكل حاجة، أنتِ مكونتيش بتبيني لي حاجة، طول الوقت سايبة اللي مهتم بيكِ ورايحة للحيوان اللي منفض لك، بعدها جاية دلوقتي عشان عرفتِ قيمتي!!

فاتسعت "فريدة" حدقاتها وتعالت ضربات قلبها، ونظرت "لآدم" كأنه "آدم" آخر، فأردف كلامه في غضبٍ:

– عشت طول حياتي وحيد، أنتِ اللي كنتِ بتزرعي جوايا الأمل والسعادة، وأول ما تجوزتِ نسيتِ العشرة وكل حاجة ما بيننا.. عشان إيه؟! عشان واحد عاش حياته يمص دمك ودمي ودم الناس كلها، حذرتك منه لكن قلبك عماكِ، طيبتك وسذاجتك خلوكِ تتوهمي إنه بيحبك. كل شوية كنتِ تقولي لي أنا هخليه أحسن، وقلت لك مليون مرة إنك مش هتصلحي

الكون ولا إنتِ مسئولة عن تصليحه! وأول حاجة عملتيها إنك بعتيني.. بعتيني عشان حد رخيص بيشتري البنات بفلوسه، وسيبتِ اللي كان بيشوفك غالية.. غالية أوي!

فابتلعت "فريدة" ريقها، وغطت وجهها بيديها وانتحبت بصوتٍ منخفض قائلةً بصوتٍ مبحوح:

– كفاية يا آدم كفاية.

– لا مش كفاية يا فريدة، أنتِ بتروحي برجليكِ للأذية!

فأخفض صوته الذي يكتم بكاءه ويظهر في عينيه مردفًا:

– أنا كنت بتعالج نفسيًا بسببك.. جالي مرض نادر.. خلاني أعيش في عالم مفيهوش حد غيري، مكونتش حاسس بنفسي ولا بالواقع اللي أنا عايشه، كنت حاسس إني في حلم بس كنت مبسوط.. عارفة ليه؟

فلم يسمع سوى صوت نحيب "فريدة" الذي كان يعلو تدريجيًا، فأردف قائلًا وهو يمسك وجهها برفقٍ باكيًا:

– عشان في العالم ده أنا كنت معاكِ يا فريدة.. مكنش فيه حد غيري أنا وإنتِ في العالم ده. وكان جاسر بيظهر لي زي الكابوس، لكن كنت بترمي في حضنك، كنتِ بتطمنيني وبتخليني أحس بالأمان.

فغلى الدم في عروق "فريدة"، وكانت تعلو تنهيداتها وظهر عليها الغضب عندما احمر وجهها محاولةً كبح جماحها، فأردف وهو في حالة هيستيرية مبالغ فيها:

– كنتِ بتحسسيني إني عايش وموجود، بس أنا دلوقتي مش عارف أصلًا إن كنتِ حقيقية ولا لأ؟! يا ريتني ما تعالجت وكنت فضلت في العالم اللي مامتك طلعتني منه، أنا بتعذب كل يوم يا فريدة ومش بتعالج، رجعوني العالم اللي أنا فيه أحسن من الواقع اللي كله قرف، اللي أنا كنت فيه ده مكنش مرض دي كانت حياة، بس اللي أنا عايشه دلوقتي ده هو اللي مرض، ولما بشوفك مرضي بيزيد!

فقامت "فريدة" منزعجةً ولم تعد تسيطر على رباطة جأشها، فكأنه قام بتفجير قنبلة موقوتة بعد آخر كلمة، فخرجت عن صمتها تزعق وقلبها محترق:

– ما كفاية بقى! أنا غلطانة إني جيت!! طول حياتك بتلوم اللي حواليك ومفكرتش تلوم نفسك! إنت اللي جبت لنفسك المرض مش أنا.. أنا زي الزفت ومشوفتوش مني حاجة عدلة.. ارتحتوا؟! بطّل بقى جو الضحية اللي أنت عايشه ده! هو الحب بالعافية؟! أنت عارف أنا كنت عايشة في إيه؟! دايمًا شايف إن الكون متآمر ضدك ومبتقدّرش ظروف الناس ليه؟! هو أنت بس اللي عندك مصايب؟!! كل شوية تقول وحيد.. وحيد!! تقدر تقول لي أنا أهلي فين؟! أنا ماما قلبها عليك أكتر مني أصلًا! ملاك أنت يعني وبتعمل كل حاجة حلوة للناس.. وأنا محدش فاكر لي حاجة عدلة! أنا اللي قلت لماما تساعدك وبعد ما عالجتك مش عاجبك!!! تصدق أنا ندمانة إني جيت.. وندمانة على اليوم اللي عرفتك فيه! أنا تعبت منكم ومن نفسي!

فخرجت "فريدة" وهي تجهش بالبكاء تاركةً "آدم" مشدوهًا من هوْل الصدمة؛ حيث أنه يتمنى أن ما قد طرق على مسامعه يكون حُلمًا أو كابوسًا، سمع صوت الباب وهو يُغلق في عنفٍ، كأنها أغلقت على قلبه فنزف.

فعلى قدر الحب على قدر الجراح، وكل هذا بسبب بضع كلماتٍ خرجت من قلوبٍ تألمت من أشياء أخرى!

فنحن نعتقد أن القتل يكون بسلاحٍ، ولكننا قُتلنا عدة مراتٍ بكلمةٍ مؤلمة تركت فينا شعورًا سيئًا مُحبطًا، كلمة نحسبها بسيطة لكنها تميتنا ببطءٍ، تنهش روحنا، تجعل نفوسنا هشة، تنهك طاقتنا شيئًا فشيئًا، ثم ننفجر في البكاء والصراخ بدون سبب يستحق أن تهب تلك الرياح الهائجة، لكنها من تراكمات الكلمات!

ذهب "آدم" بهدوءٍ ليجلس على كرسيه يتفقد صور "فريدة" على هاتفه المحمول وهو يبكي وينتحب، ثم قام بتشغيل أغنيته العتيقة المفضلة التي تُذكره بمعاناته مع حب عمره.. "فريدة"، وأخذ يرددها محتضنًا صورتها.

(أغنية Hello - Lionel Richie)

I've been alone with you inside my mind

And in my dreams I've kissed your lips a thousand times

I sometimes see you pass outside my door

Hello, is it me you're looking for?

***

كانت "فريدة" تقود سيارتها بسرعة جنونية رغم أن الرؤية لم تكن واضحة؛ بسبب بحر دموعها الذي كان شلالًا منهمرًا لا يتوقف، وصدرها الذي أصابه زلزالٌ من كثرة البكاء والنحيب، ولكن أوقفه أوتوبيس في تقاطع!! جعل عظامها ترتعد وتتخبط ببعضها بعد أن اصطدم بجانب سيارتها، وتهشم الزجاج في وجهها ولم تشعر بشيءٍ سوى أن الدنيا تدور من حولها، وأنفاسها تتصاعد مع صراخها المكتوم، ولم تدرِ بنفسها حتى ظن من حولها أنها قد وافتها المنية!

تأخرت "فريدة" وقلقت والدتها عليها؛ فوجدت هاتفًا يبلغها بأن ابنتها في المشفى، فهرعت إليها مسرعةً لتطمئن على صحتها، فوجدت بعض الخدوش التي أصابتها وقد لطف بها القدر أنها لا زالت حية وبصحة وعافية، رغم أن "فريدة" كانت تتمنى أن تفتح عينيها على عالم آخر، لكنها فتحت عينيها على والدتها، التي لعلها أول مرة ترى قلبها منقبض عليها، فأمسكت الدكتورة "إيناس" يدها في حبٍ واهتمامٍ ونظرت إليها نظرات عطفٍ لم ترها من قبل؛ فاقشعر جسدها من تلك اللحظة التي قد حُرمت منها، وفقدت الأمل في أن تجدها حتى أصبحت ترفض كل ما له علاقة بالحب، بسبب ما يحدث وراءه من خيبات أمل!

فقد أصبحنا في زمنٍ يحمي نفسه من الحب! نحمي أنفسنا من العطاء، من الثقة الزائدة، من الطيبة، من الإحساس، من المشاعر، من الاقتراب.. ومن كل شيءٍ جميل!

يقابلنا أشخاصٌ يجعلونا نكره الحب، بل ونكره أنفسنا أيضًا،

أصبح الكلام المعسول والاهتمام غير مقبول، لكن التجاهل والبُعد والجفاء يزيدنا قيمة!

أصبح الحب ليس له معنى حقيقي، أصبح معناه غامضًا، أصبح مزيفًا كأننا نحمل جوهرة ثمينة ونعطيها للآخر، فنجد من يعتبرها قطعة من الزجاج، أو نجد من يأخذها لنفسه ولا يشاركنا إياها أو حتى يشكرنا عليها، أو نجد من يجهل قيمتها ولم يقدّرها.

لكننا لا نريد أن نظلم معنى الحب الحقيقي الذي اختلطت معانيه، وتلوث عندما انتسب للبشر فلم يفهموه ولم يعطوه حق قدره؛ فقد أساءوا استخدامه كما لو كان شيئًا مخزيًا، مهينًا، ومشينًا.

فطوبى لمن كان في قلبه شيء من الحب والعطاء مثل "آدم" أو "فريدة" الذيْن يسع حبهما ملايين، لكن ما الذنب الذي اقترفاه ليؤخذ من قلبيهما شطرًا تحت مسمى "الحب"؟! فأصبحا شبه أمواتٍ أو كائنات ممسوخة لديهما مشاعر مكبوتة ويخافان من خروجها إلى النور؛ فتبقى في الظلام الدامس ويعيشان في التيه والضياع!

– أنا بقيت خايفة من الحب أكتر من الهجر يا ماما.

قالتها "فريدة" لوالدتها في حسرة على سرير المشفى، فأمسكت يدها أكثر لتشعرها بالأمان قائلةً في حزن:

– لا يا حبيبتي متقوليش كده.

ثم أردفت وهي تحاول الترويح عنها بابتسامةٍ بها شيء من الألم:

– ده أنتِ حتى برج الميزان، عاقلة وراسية وطول عمرك بتوزنيها صح.. زي مامتك كده.

فابتسمت "فريدة" ابتسامة يملؤها القهر وتحمل وراءها جبال ثقيلة من الهموم قائلةً:

– الميزان شال كتير لحد ما اتكسر، ومبقاش فيه أمل إنه يتصلح.

فحاولت "إيناس" تغيير الموضوع فبادرت بالسؤال عن "آدم":

– عملتِ إيه مع آدم؟!

فزمت شفتيها وكانت عينيها مغرورقة بالدموع، وهزت رأسها في قلة حيلة ولا تجد كلامًا تقوله؛ فسقطت دمعة من جفن والدتها فأخفتها بيدها قائلةً:

– أنا عارفة يا فريدة إني قصرت معاكِ، أنا كل يوم كنت بشوف فيكِ نسخة مصغرة مني، وده كان بيوجعني. أنا لما اتجوزت باباكِ اتحديت أهلي إني هغيره؛ لأني كنت طول حياتي عايشة بدي قلبي للناس، لحد ما قلبي زهق مني ومبقاش قادر يدي تاني، وهي دي كانت غلطتي؛ إني عشت لغيري ومعشتش لنفسي، وكان فيه واحد بيحبني أوي بس مكونتش بحبه وحبيت أبوكِ، لحد ما الولد ده هاجر واختفى من حياتي.

كانت "فريدة" تنصت لوالدتها التي بكت وهي تفصح عما بداخلها، لكنها استعادت رباطة جأشها سريعًا لتردف:

– معرفش عنه حاجة لحد دلوقتي، لكن طول الوقت كنت حاسة بالذنب، وعمري ما اقتنعت بإني آخد اللي بيحبني ومخدش اللي بحبه؛ لأني لو

مبحبوش فمهما عمل ليا مش هعرف أعيش معاه ومش هعرف انبسط، بس اكتشفت بعد كده إني بحب اللي على المسرح؛ لأنهم بيكونوا مبهرين لكن الجمهور بيكون حقيقي.

فقاطعتها "فريدة" مستدركة ما تقوله:

– قصدك إني...

فأومأت برأسها موافقةً بتأثر وهي تقول:

– إحنا يا فريدة بنحب المظاهر، بنحب بقلبنا اللي عايزنا ننبسط ونسافر ونروح ونيجي، عايزين بس نعيش حالة الحب المؤقتة؛ عشان كده بنتصدم لأننا اتعمينا عن الحقيقة محاولناش نحب بعقلنا شوية. أنا مبقولكيش تاخدي اللي بيحبك، بس خدي اللي بيريحك، خدي الشخص اللي محتاجاه في حياتك، وبطلي تثبتي حبك لحد؛ لأن الحب عمره ما كان تحدي، وإحنا بنحب نتحدى نفسنا ونكسب الرهان حتى لو القلب هو التمن!

فنظرت "فريدة" لوالدتها مليًا في دهشة مما قالته؛ حيث أنها لم تعتد ذلك، فلماذا نجد الاهتمام والحميمية عندما نكون بين الحياة والموت؟! ثم شرد ذهنها في كلامها وقد فهمت ما ترمي إليه، ثم هزت رأسها موافقةً وممتنةً.

***

تعافت "فريدة" بعد أيامٍ، وبعدها وجدت "آدم" كان يتصل بها عدة مرات، لكنه لا يعرف شيئًا عن الحادث؛ فتأنقت بفستانٍ أسود قصير وعليه بالطو، ثم وضعت بعض مساحيق التجميل التي تزيدها جمالًا ورونقًا، واشترت بعض الورود والشوكولاتة التي يحبها، ثم توجهت إلى "آدم" مسرعةً حتى وصلت إلى بيته؛ فوجدت الباب مواربًا؛ فتسحبت ببطءٍ وهي تفتح الباب وتنظر حولها باحثةً عن "آدم" ومتعجبةً من بابه المفتوح؛ لعله ذهب ليشتري شيئًا وقد نسي إغلاق الباب.

دخلت هامسةً تنادي عليه، لا تسمع شيئًا سوى نقر كعبها على الأرض، بدا عليها القلق فدلفت إلى غرفته فرأته موليًا ظهره لها يجلس على كرسيه وينظر إلى النافذة؛ فانفرجت أساريرها وأنارت ابتسامتها المكان، ثم جلست قبالته ووضعت الورود والشوكولاتة جانبًا، ثم وجدته غارقًا في النوم؛ فأقبلت عليه ولثمت قبلة على جبينه، ثم أمسكت يده لكن ابتسامتها قد تلاشت تدريجيًا، وانقبض صدرها عندما وجدت يده باردة كالثلج! وهاتفه المحمول ملقى على الأرض وعليه صورتها؛ فقامت بهز "آدم" ويداها ترتعد تتمنى أن يكون قد غطَّ في النوم ليس أكثر، أو تكون غيبوبة على الأقل، فنادت بصوتٍ متهدج:

– آدم.. دوومي حبيبي اصحى.

وجدت "فريدة" أن نبضات قلبه قد توقفت ولم يعد ينبض بالحب! لقد توقفت أنفاسه التي إذا تُرجمت إلى كلامٍ ستجد في كل شهيقٍ وزفيرٍ حروف فريدة.

لقد تمنت أن تذهب معه إلى العالم الذي تركها ورحل إليه، فتقطعت أنفاسها وتهدج صوتها وهي تنتحب ولا زالت تُحدث نفسها بأنها تحلم، ثم تأكدت أنها حقيقة عندما وجدت على الأرض علبة الدواء فارغة بأكملها! فاحمرت عيناها وذرفت دموعها بصوتٍ منتحب متقطع بابتسامةٍ يملؤها البؤس وهي تربّت على كتفه وتنكر ما رأته:

– يلا يا آدم قوم يا حبيبي بقى بطل هزارك ده.. قوم يا آدم والنبي.. أنا جايالك عشان أقول لك نتجوز.. والله هنتجوز يا آدم.. متمشيش يا آدم.. أنت الحاجة اللي باقية لي في حياتي.. أنت وعدتني إنك مش هتسيبني.

وبعد أن تيقنت من موته وشعرت بخفة جسده بعد صعود روحه، أخذته بين أضلاعها وهي تصرخ باكيةً وكاد صوتها يهد جدران الغرفة من الصراخ والبكاء:

– أنا آسفة يا آدم.. والله العظيم أنا آسفة سامحني.. أنا بحبك يا آداااااام.. هنتجوز يا آدم يلا قوم بقاااااا.. ليه كداااا.

ثم جثت على ركبتيها يقتلها الشعور بالذنب، كادت أحبالها الصوتية تتقطع من صراخها، وكادت عيناها تنفجر من الدموع وهي تمسك يديه المثلجتين تبكي بحرقة بكاءً أصاب قلبها بسهمٍ مشتعل ليزداد حرقةً.

***

إذا نظرت روح "آدم" لهؤلاء البشر كانت ستتفاجأ من أنه ليس وحيدًا أو منبوذًا؛ لقد تهافت على قبره الآلاف من البشر الذين قاموا بتعزيته، ووسائل التواصل الاجتماعي التي كانت تنهمر برسائل الشكر، والعرفان، والمحبة، والتعزية حتى "جاسر" و"مي" كانت تُذرف أعينهما بالدموع في رثاءٍ على رحيله!

لعل روح "آدم" في السماء تنظر إلى هؤلاء البشر وتقول متعجبةً:

– عندما أرى شخصًا قد مات أندهش لكمية البشر الذين يحبونه! أجد الحب، والإخلاص، والمساندة التي كان يفتقدها، والتي لم أرها وهو حيٌّ يُرزق!

لقد احتاج "آدم" أن يسمع إلى هذا الكلام المعسول، لقد احتاج أن ينشروا أعماله التي كانت مغمورة، لقد احتاج أن يُظهروا حبهم له، فأين كان يختبئ كل هذا الحب؟! لماذا ظهر فجأة بعد وفاته، وجعلوه يشعر بأنه وحيد حتى مات من مرارة الوحدة والحزن؟!

كل ذلك لا يريده الآن بعد أن صعدت روحه إلى خالقها، كل ذلك لن يفيده الآن؛ لقد رغب في كل هذا الود وهو بينهم، هل تذكروا الآن بأنه شخصٌ طيب أو ناجح؟! أين كانوا وهو منتظرٌ كلامهم وحبهم المنطمس؟!

لقد أراد "آدم" أن يعرف أنهم يحبونه وهو في وسطهم، لقد احتاج كل هذا الاهتمام والحب وهو معهم.

لم يكن يرغب في أن يُظهروا مشاعرهم له بعد أن يفاجئهم بوفاته، أم كانوا يضمنون وجوده؟!

لماذا قاموا بتأجيل دعمهم، ومحبتهم له، والإفصاح عن مشاعرهم الرقيقة بعد رحيله؟!

لقد احتاج ذلك وهو موجود في عالمهم، لكنهم اعتبروا أن وجوده أبدي! لقد انتظروا أن يموت حتى يُظهروا له محبتهم وتشجيعهم الذي ليس له فائدة حتى لا تؤنب ضمائرهم، لكنه كان ينتظره منهم ولم يجد شيئًا كأنه حشرة حقيرة عديمة الفائدة! فإذا كان هناك جملة مناسبة تُكتب على قبر "آدم" فهي:

"إذا كنت محرجًا بأن تظهر حبك لي الآن، فستكون محرجًا أكثر عندما يفوت الأوان!"

فنحن حقًا نجهل قيمة الشيء اللامع حتى ينطمس ويملؤه الغبار؛ فيختفي ولا تراه أبصارنا، وها قد اختفى "آدم" عن الأعين وعن "فريدة"، التي اعترفت بحبها له بعد أن سأم من الانتظار وفقد الأمل في أن تعطي له قلبها.

أصبحت "فريدة" بقلبٍ ميت وروحٍ مظلمة، ومات "آدم" بقلبٍ مُحبٍ وروحٍ تائهة.

لم يتوقع أحدٌ أن يرحل "آدم" كأنه في عالم خالد، لكنه الآن انتقل من عزلةٍ لم يخترها إلى وحدةٍ لا يدركها وحياة لا يعيها، لكنه كان يعيش ذلك الشعور القاتل؛ فترك آثارًا من محبته ليذهب إلى عالم.. خالٍ من البشر!

تمت بحمد الله

الحسابات الرسمية للتواصل مع الكاتب

moataz_elareeny@hotmail.com

Moataz El Areeny - معتز العريني

www.facebook.com/mo3taz.el3areeny